أنـــا

نِصْفَكَ الغائِبُ عَنْكَ



الطبعة الأولى
١٤٣٩هـ-٢٠١٨م

اسم الكتاب	: أنا نِصْفَكَ الغائِبُ عَنْكَ
اسم المؤلف	: محمد عزب
الغلاف	: وليد عبد الستار
التصحيح اللغوي	: خالد رجب عواد
الطبعة	: الأولى
رقم الإيداع	: ؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟/ ٢٠١٧
الترقيم الدولي	: ؟؟-؟؟؟؟-٧٨٦-٩٧٧-٩٧٨

٨ عمارات الواحة – قطعة ١٠ – مدينة نصر - القاهرة
ت: ٠١١١٠٣٧١٦٤٠
ghorabpublishing@hotmial.com

أنا

نِصْفَكَ الغائِبُ عَنَكَ

محمد عزب



«أنا نِصْفُكَ الغائِبُ عَنْكَ».

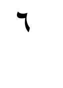
بهيجة مصري إدلبي – حوادم[1]

«هذه قصة حقيقية، لكنها لم تحدث بعد».

المؤلف

---

(١) دار الهلال، القاهرة، ٢٠١٥، ص ١٦.


٦

(١)

أنا الراوي فمن أنت؟

في مكتبة الإسكندرية حيث تُحلِّق الكتب وتخفق بأجنحتها كالفراشات المُلوَّنة، وفي قاعة المؤتمرات الملحقة بها وقف رجل خمسيني يُقلِّب شرائح العرض من حاسبه المحمول ويُعلِّق عليها في الشاشة الكبيرة مُستخدمًا قلمه الليزر وخلفه لوحة كبيرة كُتب عليها "نظرية الانفلاق اللغوي – للدكتور منصور عبد الغني، أستاذ اللغويات التاريخية بجامعة الإسكندرية". اختتم الدكتور منصور قائلًا:

- نهاية العرض. أي أسئلة؟

اعتدلت سيدة كبيرة في جلستها وبادرت بتوجيه سؤالها قائلة:

- هل اللغة من صنع الله أم من صُنع البشر؟
- في قناعتي الشخصية يا سيدتي أن اللغة من صُنع الله والبشر.

أخرجَ منصور هاتفه المحمول من جيبه ثم أكمل:

- لنفترض أن هذا الهاتف جديد بضبط المصنع كما يقولون، ماذا نجد فيه؟ نجد برامج وتطبيقات تساعدنا بعد ذلك على التواصل. هذا هو تمامًا الوضع بالنسبة للبشر. يُولد الإنسان ولديه تجهيزات لغوية سابقة التجهيز، ثم يبدأ في اكتساب اللغة من البيئة حوله. أرجو أن أكون قد أجبتُ عن سؤالك.

رفعت إحدى الحاضرات يدها فأشار إليها بتوجيه سؤالها، انطلقت مُستفهمة:

- دكتور.. تقول: إن من آدم حتى نوح فترة تقتربُ من الألف عام.

- نعم. هذا ما أشار إليه "ابن كثير" في "البداية والنهاية".

- جميل. تقول: تحدَّث البشر لغة واحدة، أليس كذلك؟

- أجل.

- ما هذه اللغة؟

- لا أعرف، ولا يوجد ما يُشير إليها بشكل علمي.

- وماذا عن الحديث الذي يقضي بأن كلام أهل الجنة عربي؟

- هذا حديث ضعيف.

- الله تعهَّد بحفظ الكتاب!

- نعم، ولكنه سبحانه لم يتعهد بحفظ اللغة. اللاتينية كان لها إسهام أكبر من العربية في الحضارة البشرية، لكنها ماتت. إذا أردنا أن نتبع منهجًا علميًّا مجردًا فعلينا أن نتخلص من الشيفونية والشعوبية أو ما أدعوه أحيانًا بالأموية. نأخذ سؤالًا آخر. نعم هناك. أجل أنت.

هذه المرة كان شابًّا مُجعد الشعر، ويرتدي نظارة سميكة. انطلق قائلًا:

- دكتور.. قلتَ في أثناء العرض إن التحدث بلغة واحدة استمر أيضًا من طوفان نوح إلى انهيار برج بابل. أليس كذلك؟

- تمامًا.

- إذًا، كيف نشأت اللغات بشكلها الحالي؟!

- سؤال جيد. حين تبلبلت الألسنة هاجرت سلالات أولاد نوح الثلاثة، "سام وحام ويافث"، في جميع الاتجاهات الجغرافية. مع مرور الوقت ظهرت اللهجات التي تحولت لاحقًا إلى لغات مستقلة، وهذه نظرية علمية مستقرة.

أمسك بتلابيب الحديث رجلٌ يبدو في العقد السادس من عمره، استهلَّ حديثه بهذه الكلمات:

- دكتور منصور.. أنا الدكتور "عبد المحسن رزق الله" من كلية العلوم، قسم الـ"جيولوجيا".

- أهلًا يا دكتور. غني عن التعريف. تفضل بسؤالك.

- شكرًا، وأهنئك على هذه المحاضرة الرائعة ونظريتك الشائقة، ولكن اسمح لي بالتعقيب.

- تفضل.

- تقول: إن اليابسة كانت كلها قطعة واحدة يحيط بها الماء.

- نعم واسمها "بانجيا".[١]

- وأنا أتفق معك. وتقول: إنه حدث انفجار قوي قطع اليابسة إلى القارات الحالية واندفعت المياه لتكون البحار والخلجان الداخلية.

- نعم.

- وأن هذا ما ساعد على انفصال البشر وتكوين اللغات.

- أجل.

- وأن هذا حدث في زمن "فالج بن عابر" من ذرية "سام".

- على الأرجح.

- أظنُّ أنك مدفوعٌ برغبة لُغوية محمومة لإثبات نظريتك عن الانفلاق اللغوي، لقد ارتكبتَ خطأ "جيولوجيًّا" لأن تقطيع الأرض حدثَ قبل ذلك بمئات الآلاف من السنين.

---

(1) Pangaea.

- هذا صحيح، لكن يجب أن نُفرِّقُ بين الانفلاق والتزحزح والتقطُّع. الانفلاق حدث كما أشرتَ سيادتك في زمن سحيق، لكن تلاهُ التزحزح ثم التقطع اللذان استغرقا وقتًا طويلًا.

انتهت المحاضرة عند هذا الحد ودوَّت القاعة بالتصفيق، لَمْلَمَ منصور أغراضه وانصرف.

(٢)

شَبَّ منصور مُحبًّا للغات مفتونًا بها، تفتقت براعمه على صوت النوارس، وهدير الأمواج، ودوي الرعد، وصفير الرياح حين تصفع مصاريع النوافذ ومفصلاتها.

كان مُولعًا باللهجات والكلمات، هناك مرض يتمثل في حُبِّ الكلمات بشكل كبير يُسمى "لوجوفيليا" يظهر على المصابين به في مرحلة الطفولة، لكنه – وللأسف – الشديد ليس له علاج.

مِن الناس مَن يتعامل مع اللغة ومفرداتها كمطية، وهناك مَن يتعامل معها بقدسية، مِن الناس مَن يحافظ على كلمته، ومنهم من يسحبها؛ مِن الناس مَن يلعب بالكلمات، ومِن الناس مَن يجرح بالكلمات، مِن الناس مَن يزبد ويرغي في الكلام، ومنهم مَن يصوم عن الكلام.

أجَل، ودون شكٍّ كان منصور بائعًا للكلمات، أي الكلمات تريد أن تشتري؟ قل لي حجمك أُعطِك الكلمة التي تُناسِبُك؟ اشترِ كلمةً

واحصل على الثانية مجانًا! هذه الكلمة يمكن فكُّها وإعادة تركيبها. هـذا نوع جديد من الكلمات يصعب إزالتُه، هذه كلمـة مُعمِّـرة، هـذه كلمـة يمكن إعادة ملئها، هذه كلمة أصلية، وهذه كلمـة رخيـصة لا تـساوي ثمن تصنيعها، مَن يشتري كلماتٍ جديدة تنزل السوق لأول مـرة؟ مَـن يشتري الكلمات؟ كلام مِن ذهب وكلام غث وكلام في الصميم.

نعم، كان منصور مهووسًا بالكلمات. لطالمـا كـان يـردد أن حياتنـا كلها كلمات وأسماء، وأن الكلمة أقوى ما يملك الإنـسان، وأنهـا تُولـد وتقترن بأخرى وتمرض وتتعـافى وتقتـل بعـضها بعـضًا، وتعـيش عـلى أنقاض أترابها وتغير جلدها وتموت، نعم.. الكلمة مثلها مثل الكائنـات الحية تتزوج وتحمل وتنجب وتسافر قاطعةً مسافاتٍ لا يقطعها البَشَر.

علاقته بـالكلمات كـما يقولـون "عـرض مـستمر"، لا تتوقـف إلا عندما ينهار على الفراش، بل كم من المرات انتفض مـن نومـه ليـسجل بعض ملحوظاته عنها!

كان مسلوب الإرادة أمام الكلمة، الكلمة سـبقت الإنـسان، ففـي البدء كانت الكلمة، والكلمة كانت "كن" فكان بإذن الله، وعيسى ابـن مريم عليه السلام الذي لم يختلف البشر في شخصٍ قـدر اخـتلافهم عليـه كـان كلمةً، والمتنبي الذي حاز البلاغة قتلته بضعُ كلماتٍ(١).

كلمة تحبس جِنًّا وأخرى تُطلِقُه؛ كلمة تصنع سِحْرًا وأخرى تُبطِلُه؛ كلمة تُشعِلُ صراعًا وأخرى تُخمده.

---

(١) الخيل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم.

(٣)

"منصور" إذًا كان اسمه، رجل فارع الطول، متين البنية، ظهره مشدود وقامته منتصبة، ومنكباه عريضان، وجه أسمر كماء النيل عند المصبِّ، كل ما فيه مصري، شعره حالك كأرض الدلتا وأسنانه بيضاء كأرز كفر الشيخ.

"منصور" إذن كان اسمه، رجل حلو الشمائل، دمث الخلق، لين الجانب، خفيض الصوت، قليل النوم والأكل، كثير التأمل، قليل الكلام، لا يبدأ الحديث ولا ينهيه، في حواره رِقةٌ وعذوبة وغزارة معنى. يمرُّ عليه اليوم فلا يتطاول على أحد ولا يُسيء إلى أحد، ينام وليس في قلبه غِلٌّ أو كِبر أو حِقد أو حَسَد، حصيلة يومه لا نميمة، لا غيبة، لا كُره، لا أنانية. طويته نقية ونفسه أبية، لم يُخاصِم أحدًا قط طيلة حياته، ولا تعرف المشاحنات والضغائن طريقًا إلى قلبه.

"منصور" إذًا كان اسمه، رجل قليل الضحك، كثير التفكير، يفرط في التدبُّر والتأمل وإمعان النظر حتى في أبسط الأمور، تلك التي تمر على ملايين الناس فلا يلتفتون إليها، علَّمته أمُّه الكلام، وعلَّمه الناس الخرس والسكات، كان خجولًا لا يتكلم إلا إذا وُجِّهَ إليه الحديث، أصابه طُولُ الصمت بكآبة مزمنة.

"منصور" إذن كان اسمه، "مقهورًا" كان نعته. خمسة حروف وخمسة أسماء للقهر، بل قل عشرات الأسماء.

ما أقسى النبش في ذاكرة مشوهة! ذاكرة مليئة بالحُفر والبُثور والشروخ، ذاكرة الإنسان ليست كذاكرة الحاسب الآلي فلا يمكن مسحها أو استبدالها. لا يوجد ترياق للذاكرة ولا جبر لها. الحل الوحيد أن تَفقدها كُليةً أو أن يصيبك الخَرَفُ أو أن تموت.

يمارس بعض الناس هواية النبش في الذاكرة ما دام في صدورهم أنفاس، ولم يُصابوا بعد بـ "الزهايمر". الذاكرة كالطواحين، كالقطط المشاكسة؛ كلما استفززتها خمشتك وخربشتك.

تمنى منصور لو استبدل ذاكرة الفيل تلك التي لديه بذاكرة سمك الزينة، لكن على أي حال لا بأس ببعض السجحات؛ لأننا حين نتحدثُ عن آلامنا نشعر بالراحة ونُشفى جزئيًّا أو وقتيًّا منها.

"منصور" كان اسمه، "مقهورًا" كان نعته.

(٤)

(أن تفقد حبك الأول قهر!)

أما زلتَ تذكر حبك الأول؟ هذا الإنسان الذي جعل قلبك يدقُّ بشدة. أما زلتَ تراه في أحلامك؟ أما زلتَ تهفو لرؤيته وتسأل عنه وتشتاق إلى سماع أخباره؟ أما زلتَ تذكر أول قُبلة وذاك اللَّمم؟ لستَ وحدك في هذا الشعور. "حبك الأول هو حبك الأخير"، كما قال إحسان عبد القدوس.[1]

كاذبٌ مَن يقول إنه بَرِئَ من هذا الحب، كاذبٌ مَن يقول إنه شُفيَ من سقمه. حبك الأول من مركبات دمك تمامًا مثل البلازما والصفائح الدموية والكرات البيضاء والحمراء.

---

(١) من رواية "يا ابنتي لا تحيريني معك"، دار أخبار اليوم، القاهرة، ١٩٨١.

سيأتي إليك في أوقات ضجرك وإخفاقك وحُزنك وتبرمك ووحدتك. ستحن لذاك الحِسِّ المرهف والشعور النبيل. ستشتاق إلى أول منزل[1] كلما داهمتك فيه هموم الدنيا.

الحبُّ الأول صِدقٌ وبراءة، حبٌّ طاهر عذري أفلاطوني عفيف، حبٌّ من أجل الحب لا تدخل فيه الماديات ولا الحسابات، حبٌّ يلغي الفوارق الاجتماعية والفروق الطبقية.

سُمي الحب الأول بحب الجراء لأن الفتيان والفتيات يلتصق بعضهم ببعض مثل الجراء، ويبدون طاقة هائلة وعنفوانًا كبيرًا في الهيام، تشعُّ عيونهم البريئة بالأمل، وتكون قلوبهم مُترعَة بالمشاعر الجميلة.

أنا "منصور".

حين كنتُ في الثانوية العامة قابلتُ فتاة في المراجعات النهائية بأحد مراكز الدروس الخصوصية، تعلَّق قلبي بها، كنتُ أختلسُ النظرات إليها حتى انطبع مُحيَّاها في روحي وقلبي وعقلي وأوراقي وفراشي وجميع مفردات حياتي.

أحببتُ مادة الكيمياء بعد طول جفاء بيننا؛ لأني أُقابِلُ رانيا في هذا اليوم. صَدَقَ إيليا حين قال:

إن نفسًا لم يُشرق الحب فيها هي نفس لا تدري ما معناها

---

(١) للشاعر حبيب الطائي... نقل فؤادك حيث شئت من الهوى/ ما الحب إلا للحبيب الأول/ كم منزل في الأرض يألفه الفتى/ وحنينه أبدًا لأول منزل.

الكيمياء الحقيقية هي ما نشأ بيننا من تلاطُفٍ.

عينان بنيتان قاتلتان. أحب العيون البنية بلون التمر، تمتعت أمي بعينين بنيتين فاتحتين بلون البندق أحيانًا ولون الكهرمان أحيانًا ولون العسل أحيانًا، يتوقف الأمر على درجة تشربهما للضوء. "عيناك لحظتا شروق، أرشف قهوتي الصباحية من بُنهما المحروق، وأقرأُ الطالع، عيناك يا حبيبتي شجيرتا برقوق."[1] حين أخبرت أمي عن "رانيا" أخذتني في حضنها وقبلتني قائلة: "كبر ابني وصار عاشقًا."

أحسّت رانيا أنني أُديمُ النظر إليها فغضّت الطرف، لا تسألني: من أين واتتني الشجاعة على غير عادتي حين تقدمت منها سائلًا في جرأة ساذجة:

- هاتان عيناك؟
- أفندم؟!
- سؤال بريء. أقصد ليست عدسات؟

سؤال غبي! من في مصر يبتاع عدسات بنية؟! أغلب من تفكر في شراء عدستين من الشرقيات يخترن الرمادي الفاتح أو الأخضر البرسيمي أو "التركواز" أو الأزرق.

---

(١) من قصيدة "حديث خاص مع أبي موسى الأشعري" لأمل دنقل.

كانت رانيا جميلة ورقيقة ومهذبة ومتكلمة وبشوشًا وضحوكًا. اعتدنا بعد انتهاء الدرس السير على "الكورنيش" حتى أقرب نقطة لمنزلها. تحدَّثنا عن المستقبل والأيام المزهرة بالورود والآمال. سمعنا أغاني الحب وموسيقى "مونامور". كتبنا أسماءنا على الصخور وتعاهدنا أن يكون كلانا للآخر.

في عيد الحب أهديتُها قلبًا صغيرًا من "الكريستال" الأحمر، أمسكتُ بيديها الدقيقتين فأحسستُ بأني أنصهرُ بين كفيها، مع الهدية المتواضعة كتبتُ لها على بطاقة صغيرة كلمات نزار "لو تطلب البحر في عينيك أسكبه، أو تطلب الشمس في كفيك أرميها."

أصبح قلبي مُفعمًا بالحب، بدأتُ أقرأ كُتب المحبين ورواياتهم: رسائل الأحزان[1]، الحب في زمن الكوليرا[2] والحب في زمن النفط[3] والحب في المنفى[4].

أحبُّ نجمة الشمال وكوكب عطارد وشتاء الإسكندرية وعطلة نهاية الأسبوع والسباحة وصيد الأسماك ونادي الاتحاد السكندري ووقت الأصيل وشجرة "السيسبان" والياسمين البلدي وثمرة البرقوق والفول بالبيض والكنافة بالبندق وسمكة "البلاميطة" البلدي والقهوة باللبن وطائر الشحرور وموسيقى "عمر خيرت" وفيلم "الناصر

---

(١) لمصطفى صادق الرافعي.

(٢) لجابريل جارسيا ماركيز.

(٣) لنوال السعداوي.

(٤) لبهاء طاهر.

صلاح الدين" وصوت "فيروز"، لكن حبك يا رانيا شيء آخر تهون من أجله الدنيا بما فيها ومَن فيها.

كانت رانيا جدَّ مختلفة؛ لذا لم تُفلح في وصفها أو في مطارحتها الغرام العبارات التقليدية المهترئة من شاكلة: "أحبك حتى الثمالة، وحبك في دمي.. إلخ." لغة يأخذك إبدال حرف واحد فيها من "الجنس" إلى "السجن" ومن "الأمل" إلى "الألم" ومن "المنحة" إلى "المحنة" لا يمكن أن تصف حبيبتي. رانيا هي رانيا أو الإنسية التي سُميت بهذا الاسم، نقطة. نهاية الجملة ونهاية السطر ونهاية الصفحة ونهاية القصة.

دعوني أَقُل لك كيف انتهت القصة، كانت رانيا مسيحية، وكنتُ أعلمُ ذلك. أدرك كلانا أن الله محبة، لكن البشر يقسّمون هذه الحب ويقطعون منه ويزايدون عليه، أحبَّ الله العالم،[1] لكن الناس كرهوا بعضهم البعض! يمحق الله الكره ويربي الحب ويربي الناس البُغض والمَقت ويمحقون الحب!

كان مِن الطبيعي أن تنشأ بيننا هذه العاطفة حتى لو كنا من المجوس أو السيخ أو حتى كفار قريش، الحبُّ لا يستأذن ليدخل القلوب؛ إنه يخترق كل الجُدر والحواجز، الحب لا يعرف لغة المنطق ولا يستمع لصوت العقل، ليس للحُبِّ مُقدمات؛ ليس للحبِّ دين، لكن له إلهًا هو من أوجده؛ هو من أودعه الحشايا والأفئدة.

---

(١) يوحنا ٣:١٦.

وقـف ضـدنا الأشـخاص والأعـراف، بـل الإسـكندرية كلهـا، الإسكندرية، تلك المدينة المُحبة العاشقة، لم تعـد كـذلك. فقـدت قـدرًا كبـيرًا مـن مـدنيتها وتـسامحها. الإسـكندرية لم تعـد "فاطمـة وماريكـا وراشيل"،[١] بـل "فاطمـة وخديجـة وترتيـل" أو "تريـزا وجورجيـت وكاميليا".

لا... لا. الإسكندرية لم تكن قط متسامحة. منهـا خـرج الـسلفيون ليقولوا إن الدين والوطن لله، الـسكندريون هـم مـن سـحلوا مـرقص الرسول في الشوارع، هم مَن قتلـوا "هيباتيـا"، هـم مـن فـصلوا سـفن المسلمين في الميناء الشرقي عن سفن الكفار في الميناء الغربي!

أما أنا ورانيا فلم نستطع الزَّود عن حبنا و"بقلوب محطمـة ودمـوع صامتة" كما في قصيدة "بايرون" الشهيرة "افترقنا".[٢]

لا يمكن أن تتخيلوا الألم الذي ضرب قلبي، كانـت رانيـا حبيبتـي وصـديقتي، كانـت حـصني وملجئـي ومخبئـي، لا حـب دون فَقْـدٍ. لا أستطيع وصف الحـسرة وخيبـة الأمـل التـي شـعرت بهـما، أحسـستُ بالعجز كدودة تسير على ورقة صنفرة، أو ذبابة وقعت في طبق عـسل في شهر يناير.

---

(١) فيلم من إنتاج ١٩٤٩ تأليف أبو السعود الإبياري وإخراج حلمي رفلة وبطولة محمد فوزي. يظهر الفيلم كيف كانـت جميـع العرقيـات والـديانات تعـيش في تسامح ومحبة في مصر.

(2) When We Two Parted.

(٥)

(أن تموت أمُّك وأنتَ في شرخ الصِّبا قهر!)

كنتُ في الثامنة عشرة من عمري حين أعطوني رحم أمي في "كيس" بلاستيك أزرق اللون، طلبوا مني الذهاب به إلى معمل تحاليل شهير بمحطة الرمل.

ارتعدت فرائصي وأنا أحمل الرحم وأستقلُّ به "المترو" أو "الترام" كما يطلق عليه السكندريون، ظللتُ أنظرُ إليه في أسًى، حبستُ دمعي وابتلعت ألمي.

في هذه الرحم تزحلقت وتشقلبت غير مرة! تمنيت لو عدتُ من سجن الدنيا الضيق لرحابة هذه الرحم. تمنيتُ لو ذاب لحمي وعظامي في الحامض "الأمينوسي" وعدتُ مِن مُضغة لعلقة ثم نطفة ثم حيوان منوي مُشوَّه يجرى "في المحل" بلغة الجيش، ويفشل في تخصيب بويضة مستنفرة ويموت كمدًا وقهرًا على جدارها المستفز. تمنيت لو نما حبلي

السري من جديد والتفَّ حول عنقي فخرجت لهذه الدنيا سقطا مشوهًا.

بعد مرور أسبوعين جلست على الأحجار العتيقة بـ "الكورنيش" في مقابل السلسلة حتى موعد استلام نتائج التحليل. ما أشبه الميناء الشرقي القديم برحم منفجرة! كم من السفن غرقت هنا بما عليها من أشخاص وبضائع؟! كم من التماثيل ترقد هنا في القاع مثل الأجنة الميتة؟! حمل خارج الرحم.

رحتُ أتابع النوارس وهي تغطس في المياه لتقتل الذريعة وتقتنص الأسماك الصغيرة التي لا حيلة لديها أمام الموت. الموت لا يخضع للمنطق. أعلم أنه ليس ضروريًّا أن يكون هناك سبب لتنتهي الحياة، الموت لا يأتي بغتة؛ إنه يبدأ فور ولادتنا مباشرة. جئت لتمضي وحللت لترحل، لكني نظرت إلى خط الأفق متمتمًا: "يا رب.. لا تأخذ أمي الآن. خذ مدرسة الفيزياء أو جارتنا منيرة أو هذه المرأة هناك أو تلك واستبقِ أمي".

في المساء ناولوني ورقة عوضًا عن الرحم الذي لا أدري ماذا فعلوا به. هل دفنوه مع النفايات السامة؟! هل ألقوه في مستودع القمامة؟! هل استقر في جوف كلبٍ ضالٍّ أم تعفَّن وتأفَّف منه المارة؟! حملت الورقة أنباء غير سارة. الورم خبيث، وها هي أمي التي علَّمتنا كيف نحبُّ الحياة، تموت في صمت وعلى وجهها علامات الرضا بالمكتوب والتسليم لإرادة الله.

كانت سيدة مُحسِنة تضع المياه والحبوب على النافذة للعصافير، وتشتري أغطية قديمة من كهن الجيش تضعها على ظهور أولاد الشوارع، وتضع الطعام في أفواه المساكين. كانت تسدد ديون الغارمين، وتعسعس على الفقراء، وتساهم في "شوار"(١) اليتيمات. صحيح لا يهون القرش إلا على الفقير.

أحسستُ بالارتباك والحيرة والفزع كمن تاهَ في المولد، وقفتُ أمام أمي لا أفهمُ لماذا لا تتحرك؟ لماذا يغطون وجهها على هذا النحو؟ لماذا الأرض مُبتلة؟ وما هذا القطن والقماش الأبيض؟ وما هذه الرائحة؟ لماذا لا تنهض أمي لتدير المذياع وتعدُّ لي كوب الحليب، وتُعانقني وتُقبِّلُني كما هو الحال كل صباح؟ ماذا تفعل في هذا الصندوق الخشبي؟ وإلى أين يأخذونها؟!

"ماتت أمي اليوم."(٢) لا شك أني كنتُ أدرك أن الموت موجود، شاهدْتُه في عيون الخراف وهي تُنحر في العيد. شاهدته في خياشيم الأسماك حين يتغير لونها وتشبث الصراصير بالحياة في جنون. شاهدته في سحق النمل تحت الأرجل والبعوض على الجدران، لكن ما لم أكن أدركه أن أمي مثل الناموس تموت.

كرهتُ كلمة "سرطان"، وكرهتُ حروفها، وكرهتُ كل ما يحمل هذه التسمية: سرطان البحر وبرج السرطان ومدار السرطان.

---

(١) من الكلمات المستخدمة في الإسكندرية بمعنى "جهاز العروسة".
(٢) افتتاحية رواية "الغريب" لألبرت كاموس Albert Camus ١٩٤٢.

أوينا في المساء إلى فراشنا الكبير. انتظرتُ أمي لتُدثِّرني كعادتها، لكنها لم تأتِ. رأيتها تطوح بي في الهواء وتتلقفني وأنا أضحك وأقهقه: "أمي يا ملاكي يا حبي الباقي إلى الأبد، ولا تزل يداك أرجوحتي ولا أزل ولد."[1]

أما أختي الصغيرة سعاد التي أبدت تماسُكًا طيلة اليوم فقد أحسستُ بها تتكور كالجنين في الرحم وتنهنه حتى نامت ودموعها على خديها. منذ هذه اللحظة دخلت سعاد التيه ولم تخرج منه، منذ هذه اللحظة عاشت في مشيمة أو فقاعة أو ربما شرنقة أو قُلْ قوقعة أو صوبة زجاجية، كبرت قبل أوانها كالدجاج الأبيض والفاكهة "المهرمنة" المحقونة والخراف المنفوخة بالملح والماء.

رحلت الفرحة عن بيتنا، لم يَعُدْ مُبهجًا، لم يعد دافئًا، لم يعد نظيفًا، كرهتُ اليتم، مرت الأيام ثقيلة، كمْ اشتقتُ إليكِ يا أمي! اشتقتُ إلى حكاياتك وجلستي معك في الشرفة، اشتقتُ إلى خضار الفاصوليا الذي تطيبينه لي، اشتقتُ إلى مربى المشمش، اشتقتُ إلى الحلبة المعقودة والعجوة بالبيض والأطعمة التي كانت تُولِّد في أجسامنا الطاقة وتعيننا على تحصيل العِلم في الأجواء الباردة، لقد كان الدفء الشغل الشاغل لأمي، لكن أهم من دفء الأجسام كان دفء المشاعر وأهم من دفء البيوت كان دفء القلوب.

---

(١) للشاعر سعيد عقل.

(٦)

(أن يكونَ كلُّ شيءٍ في حياتِك مستعملًا قهر!)

كل شيء في حياتي مستعمل أو أُعيدُ استخدامه؛ الشقة التي أسكنها حسب رواية والدي قبل وفاته كانت لزوجين منفصلين، وفي رواية أخرى أن حريقًا شبَّ بمن فيها مِن سكانٍ وأثاثٍ وهذا يفسر رُخص إيجارها.

عندما كنتُ صغيرًا كانت أمي تجلبُ لي الكتب الخارجية وأوراق الدروس الخصوصية من معارفها، وكنا نجلس بالساعات نمسح بالممحاة الكتابة الموجودة بالقلم الرصاص، الدَّراجة الوحيدة التي امتلكتها كانت لابن جار لنا أصبح حجمها غير مناسبٍ له، ملابسي كانت مستعملة قادمة من الخارج، عادة ما تكون هذه الملابس للموتى من الأوربيين، أما أحذيتي فكانت من الباعة الذين يقفون بعربات أو يفرشون بضائعهم في ميدان الشهداء وقد تكون مسروقة من الجوامع، وأما الأدوية فكنا نحصل عليها من رفوف المساجد.

كنتُ أشعرُ أني أيضًا مستعمل ومُستنزَف ومُستهلَك ولا أصلحُ لشيء، اشتقتُ كثيرًا لرائحة الأشياء الجديدة حين تُفض، أدخل محلات كثيرة فقط لأشم هذه الرائحة التي يمتزج فيها البخور مع "النفتالين"، تولَّدت لديَّ عُقدة جمع "الشنط البلاستيك" الخاصة بالمحلات الكبيرة والعلامات التجارية المشهورة التي يطلقون عليها اسم "ماركة" أو "سينيه"، لديَّ العشرات منها، وكذلك ورق "السوليفان" الذي لا أعرف حقيقة ماذا سأفعل به؟! ما الجديد إذن في حياتي؟! لا شيء. سيارة مستعملة، لكن استعمال طبيب كما يقولون وزوجة مستعملة.

علمتنا أمي التدبير والتدوير وكانت تستحق دكتوراه فخرية من أكبر جامعات العالم في الترشيد، الحاجة أمُّ الاختراع والعَوَز يجعلك تستنبط الأفكار وتستخدم الأشياء حتى الرمق الأخير: فضلات الأكل للطيور، الورق يمكن الكتابة على وجهه الآخر أو وضع البطاطس المحمرة عليه ليشرب الزيت، صفائح السمن كشوالي زرع، قشر البرتقال للكعك وبواقي الكرنب للتخليل... إلخ.

يعتقد المصريون أن هناك أشياء مثل أعواد الثقاب تُستخدم مرة واحدة، إلا أن أمي أثبتت أنه يمكن إشعال أعواد الثقاب مرتين، كانت تحتفظ بهذه الأعواد في طبق صغير وإذا أرادت أن تشعل عين أخرى من عيون الموقد استخدمتها لهذا الغرض.

كانت تتردد على محل خردوات في "زنانيري" تشتري من هناك كل شيء يساعدك على توفير المال: إبرة كبيرة أو مسلة لإصلاح الحفايات

"أساتك" لتدكيك الجوارب والغيارات الداخلية. كانت تَقْلِبُ ياقات قمصاننا البالية وتخيط عليها شريط بلاستيك رقيقًا وشفافًا حتى لا تَبلى سريعًا، كما كانت تشتري بواقي صوف المصانع بالكيلو من الساعة بكرموز لتصنع لنا بإبر التريكو "بلوفرات" للتدفئة.

كانت أمي تُقسِّمُ رغيف الخبز أربعة أجزاء حتى يظل نظيفًا، ثم تُحمِّص الباقي حتى يعيش أطول وقت ممكن أو تصنع به الثريد أو فتة العدس. كانت تحتفظ ببواقي الأرز في الفريزر ثم تضعه مع الأرز الجديد قبيل تشرُّبه، وكنا لا نميز بين كليهما.

كانت أمي حاذقة في خلط القليل بالكبير وإضافة الرديء إلى الطيب: قليل من القهوة الكولومبية مع البن البرازيلي، قليل من اللحم البلدي المفروم مع اللحم المستورد، قليل من الحليب الجاموسي مع أكياس الحليب المعبأ. كانت تنزع القشدة من الحليب وتخزنها في الثلاجة ثم تضعها على نار هادئة وتخلطها بالسمن الصناعي، كانت تخلط شاي التموين بنوع آخر جيد نسبيًّا حتى يستمر فترةً طويلة.

كانت أمي من أوائل من استخدم مصطلح "تنظيف الثلاجة" الذي لا يعني مُطلقًا تنظيفها بالماء والصابون، بل إخراج بواقي الطعام منها وتناوله على الغداء كفرصة أخيرة قبل أنْ يُلقى إلى الدواجن.

كانت أول مَن استنبط صابون الوجه متعدد الألوان؛ كانت لا ترمي "بروة" صابون غسيل الوجه بل تضيفها لقطعة الصابون الجديدة، وهكذا تعددت الألوان والأشكال.

كانت أمي كذلك أول من صَنَعَ "مرقة" الدجاج وكانت تحصل على كميات كبيرة من الحساء من مطعم المستشفى الذي كانت تعمل به. كان الطهاة عادة ما يتخلصون من الكميات الزائدة فكانت أمي تأخذها وتطبخ بها خضارنا دون لحمٍ، كما كانت تبخر المياه وتحفظ "البهاريز" في "أكياس" وتضعها في "الفريزر".

في الجامعة كنتُ أحصلُ على إعانة بنك ناصر ويتصدر اسمي القائمة التي كانت الكلية تباهي بنشرها بعد إجراء البحث الاجتماعي! كنتُ أتجنبُ الاقتراب من "كافتيريا" الكلية حتى لا أفْقِدَ ما في جيبي من جنيهات، كان زملائي من سكان الأقاليم المقيمين في المدينة الجامعية يعطونني "كوبونات" الوجبات الخاصة بهم عندما يقررون السفر فجأة أو المكوث في بيوتهم للمذاكرة استعدادًا للامتحانات النهائية.

كنتُ أشتري بواقي تنظيف الجبن الرومي أو التركي كما يُسمى في الإسكندرية، صحيح أن به فُطر واضح، لكنني معدتي كمعدة النعام قادرة على هضم الزلط، البسكويت الذي "أشق به ريقي" مع القهوة كل صباح يسمى "كسر" وأشتريه بالكيلو من منفذ المصنع في السيوف، أشتري معلبات الطعام من الرف المخصص للأصناف التي أوشكَ تاريخ صلاحيتها على الانتهاء أو بها عيوب أو خبطات في أثناء النقل والتداوُل فتُباع بنصف الثمن.

(٧)

(أن يرحل والدك وأنت في ريعان الشباب قهر!)

حين يموت والدك تشعر أنك نبات مائي بـلا جـذر ترتكـز عليـه، تشعر بالعجز كصرصار مقلوب على ظهره في ليلة باردة أو كذبابة غبيـة أدْخَلتْ رأسها في فتحة من فتحات سلك النافذة.

بعد أن لفَّ الرَّدى أمي، أصـبح أبي مهمومًـا بـالموت بعـد أن كـان مهمومًا بالحياة، سَئِمَ تكاليفها تمامًا كما أحسَّ "زُهير بن أبي سـلمى".[1] سيطرت فكرة الرحيل عليه لحد المرض لدرجة أنه كان كلما اجتمعَ بعدد من الناس في أي مكـان، يطلـق العِنـان لتخميناتـه ويجتهـد في تـرتيبهم حسب أسبقية وفاتهم!

(١) "سئمت تكاليف الحياة ومن يعش / ثمانين حولاً، لا أبالك، يسأم!" من معلقة زهير بن أبي سلمى.

استيقظنا مبكرًا في يوم من أيام الجمع وقصدنا البحر للصيد بعد صلاة الفجر، جلس أبي أعلى الحاجز وبجواره بقية عُدَّة الصيد، أدار المذياع الصغير على قرآن البرنامج العام ثم ألقى بشصِّه وغفا، أخرجتُ سمكة شعور كبيرة نحو كيلو أو يزيد، انطلق أبي ليحضر الملقاف، فجأة سَقَطَ جسمه الضئيل وهو على حاجز الأمواج فارتطمَ رأسُه بصخرة متوحشة وفَقَدَ الوعي.

حملنا أبي إلى مستشفى كلية طب الإسكندرية، في غرفة العناية المركزة وضعوه على جهاز التنفس الصناعي، أصبح في حكم اليقين أنه أُصيبَ بحالة من حالات الموت الدماغي، أطرقتُ مفكرًا: "يا ترى يا أبي هل أما زلتَ معنا أم سافرت هناك؟"

لو كان معنا مال كافٍ لحنطنا أبي أو وضعناه في النيتروجين السائل وقنعنا أنه ما زال يشغل حيزًا من الفراغ بدلًا من أن يلتهم جسده الدود، لو كان لدينا مال كافٍ لتركناه على الجهاز في مستشفى خاص وقنعنا بأنه يتنفس وأنه قد يعود يومًا ما من سفره.

دعوتُ الله أن يعيد أبي إلينا كما أعاد العزير وأصحاب الكهف. تمنيت لو عاد المسيح عليه السلام اليوم فوقف على رأس أبي وقال له: "قم!" فقام بإذن الله.

مرة أخرى أمرُّ بالموقف الصعب، هذه المرة أُضطررت إلى توقيع أوراق يتم رفع أبي بمقتضاها من فوق جهاز التنفس الصناعي، وقفنا

من وراء اللوح الزجاجي نشاهد رئة أبي تنكمش ثـم لا تتمـدد بعـد أن فصلوا عنه الخراطيم والأنابيب والمحاليل.

سألت سعاد: "مات؟" فجاء ردها: "مات منـذ زمـن." صـحيح، عندما ينطفئ البريق في العيون نموت.

مات أبي اليوم "إكلينيكيًّا" فقط، لكنـه مـات روحيًّـا قبـل اليـوم. أصعب شيء أن تكون "ميتًا بالحياة"، أن يموت ما بـداخلك، أن تفقـد الرغبة في الحياة وفي الكلام وفي التنفس، أن تنام هربًا وأن تعيش جـسدًا بلا روح ولا هدف، ظل قرابة ربع قـرن يتكـئ عـلى المنـسأة، فلـما خَـرَّ أدركنا أنه كان ميتًا منذ زمن، وأن أعوامه الأخيرة لم تكن سوى "حلاوة الروح".

مات حين حملنـا لـه إنـذارًا بالفـصل مـن المدرسـة لأننـا لم نُـسدِّد المـصرفات، مـات حـين جَمَـعَ الـصفحات البيـضاء مـن الكراسـات والكشاكيل القديمة وذهب بها لمطبعة الأسطى خليل ليقصها وينضدها لنا لنستخدمها من جديد، مات حين وجدنا نـستعير الكتـب الخارجيـة من زملائنا مدة يوم أو يومين للمذاكرة فيها، مات حـين عَلِـمَ أني بعـتُ نصف لتر من دمي لأحد سماسرة الدم لأشتري مرجعًا مُهمًّا.

مات حين عَجَزَ أن يشتري لنا كسوة الشتاء، مات حين سـلمني في الإجـازة الـصيفية إلى ورشـة الأسـطى حـسن لأعمـل معـه في تقطيـع الرخام، مات حين فَتَحَ له البقال صفحة في دفتر الشراء بالأجـل، مـات

حين حَمَلَ سراويلنا إلى المصبغة وحقائب مدارسنا وأحذيتنا إلى الإسكافي ليخيطها للسنة الرابعة على التوالي ويُركِّب لها نصف نعل.

مات حين أطعمنا سمك "البساريا" واللحم المجمد المصاب بالديدان، مات حين عاد إلينا ومعه "شنطة" ممن توزع على الفقراء في شهر رمضان، ومات حين اصطحبنا غير مرة إلى موائد الرحمن، مات حين قَبِلَ أن يدخل علينا بكعك الرحمة وبواقي الأفراح، مات حين أحضرَ للبيت رؤوس الخراف وأمعاءها التي كانت أمي تجلس بالساعات لتنظفها بعد أن تقلبها كالجورب ثم تحشوها بالأرز الكسر لتصنع لنا "الممبار" وتطهو السبانخ في حسائه.

مات حين قسَّط فاتورة الكهرباء والهاتف، مات حين وقع على الأرض من شدة الزحام طلبًا لأسطوانة غاز، مات حين فشل في الحصول على عشرة أرغفة من الخبز، مات حين باع صوته في الانتخابات.

كم موتةً متَ يا أبي قبل أن تموت؟! وكم هي ثقيلة الحياة!

(٨)

(أن تفقد أختك الوحيدة قهر!)

شبَّت سعاد غير جميلة وغير مرغوب فيها، أخذت تُسرِفُ في الأكل أمام التلفاز حتى أصبح جسمها مثل القرنبيط، انكبت على الطعام فنمت أفقيًا، مع مرور السنين أصبحت مثل البامية الشائخة.

وقعت في شَرَكِ العنوسة ولبست حزام العفة طواعية، فقدت كل شهر بويضة وتضاءلت فرصتها في الأمومة. غدت أيامها كلها حيضًا بلا تبويض ونِفاسًا بلا حَمْلٍ.

كان جسمها مُترهلًا وبشرتها مجعدة، وشعرها مثل عش طائر الحجل، وصدرها مرتخيًا وخصرها مختفيًا، وساقاها ملتصقتين وقدماها كبيرتين، وظهرها مُقوِّسًا، وبطنها يشبه إبريق القهوة.

ما أقسى أن ينمو شعر المرأة في خديها وصدرها ومناطق أخرى من جسدها فتتحول إلى قنفذ أو قرد!

بانت سعاد.[1] تمنَّت لو تحولت إلى امرأة كاملة الفتنة، تمنت لو خلعت نظارتها السميكة وغيرت ذيل الحصان في شعرها، تمنَّت لو رققت حاجبيها واستبدلت ملابس أكثر فتنة بالملابس التقليدية تلك التي ترتديها، تمنَّت لو اختفت تلك الهالات تحت عينيها وهذه العروق الزرقاء من يديها، تمنَّت لو عرفت مواطن الفتنة وأخرجت الأنثى من داخلها، تمنَّت أن تدغدغ أعصاب الرجال وتضغط على ذر الشَّبَق لديهم؛ أمنيات مشروعة.

أعطيتها المال اللازم لتُخفي هذه الشعرات البيضاء القليلة وتقضي على هذه البثور في خديها وصفار أسنانها وخشونة ركبتيها ومرفقيها وتشقق كعبيها وهذا السواد تحت إبطيها.

وللأمانة فعلت كل ما يمكن أن تفعله امرأة تريد الستر فصففت شعرها ولمعت أظافرها وابتاعت ملابس جديدة وأدوات ومساحيق تجميل وقرطًا جديدًا ومشدات من النوعية التي تبرز الصدر، واستبدلت نعالها العملية بأخرى ذات كعوب مرتفعة، واستعاضت عن نظارتها بعدسات لاصقة ملونة، وحرصت على حضور كل الأفراح والمناسبات الاجتماعية، لكن لم يلتفت إليها أحد.

لماذا تحصل امرأة على كل شيء وتحصل أخرى على الفُتات ورجع الصدى وحصاد الهشيم؟ لماذا تحظى امرأة بطريق فسيح ومُشمِس

---

(١) من قصيدة "كعب بن زهير".

ومفروش بالورود بينما تطأ أخرى الشوكَ في دربٍ متعرج ومظلـم؟ مـا أقسى أن تتلف فساتين المرأة ويتطاير عطرها دون أن يقترب منها رجل! "أريد رجلًا" صار شعار المرحلة.

أخـيرًا وافقـت، وهـي خريجـة الجامعـة، أن تتـزوج فنـيَّ إصـلاح دراجات، وهو الرجل الوحيد الذي تقدَّم لهـا. لم تجـد بأسًـا مـن تغيـير بعض مبادئها أو حتى التنازل عنها في مقابل أن تشعر بلمـسات أصـابع رجل على جسمها أو هكذا ظنَّت.

عارضتُ الأمر بشدة وشاهدت في الأفق نُذر كارثة مُحقَّقة ثم عدتُ ونزلت على رغبتها كارهًا.

كان عبد السميع أُميًّا، لم يسبر غـور التفكـير، لم تُثِـر عقلـه غرائـب الحياة ولم يكن استثنائيًّا في أي شيء، لا يفك الخط بالمرة، بـل إنـه يحفـظ أرقام هواتف أصدقائه ومعارفه بالشبه!

كان أصلع الرأس، عاقد الحاجبين، كبـير الـبطن. أسـنانه متنـافرة وأذناه متباعدتين وأنفه معوجًـا مفلطحًـا ومنخـاراه منفـرجين، يمـشي كـذكر الـبط "المتـزغط" ويجلـس كـالجوال ويغـط في النـوم والـشخير كالبغال، كان شديد العَرَق، كريه الرائحة، لا يُحسِن اختيار ملابـسه ولا انتقاء ألفاظه، يتكلم بيديه أكثر من لسانه، ويأكل بعينيه أكثر من فمه.

صحيح أنه لا يعرف الألف من "كوز الذرة"؛ وصحيح أنـه يعـاني النسيان وله ذاكرة مثل المنخل؛ وصحيح أنه لا يمتلك شيئًا قيِّمًا بين أذنيه ولا يرتقي مصعده إلى الدور الأخير؛ وصحيح أن لديه حَوَلًا بـسيطًا في

عينه اليسرى؛ وصحيح أن بعض بقع "التينيا" تنتشر في رقبته؛ وصحيح أنه لا يتكلم كثيرًا، وعندما يتكلم يكون صمته أفضل من حديثه؛ وصحيح أنه لا يغسل وجهه بعد الاستيقاظ ولا يُمشِّطُ شعره ولا يربط سيور حذائه ويرتدي أشياء عجيبة، وملابسه متنافرة ومتسخة؛ وصحيح أنه لا يهتم بنظافته الشخصية ولا يغسل يديه بعد الأكل؛ وصحيح أنه كثير العرق ورائحة قدميه لا تطاق؛ وصحيح أنه ينظف أسنانه ومنخاريه بأظفاره الطويلة المتسخة؛ وصحيح أنه يتجشأ ويبصق في الشارع؛ وصحيح أنه يُطفئ سجائره فيما تبقَّى من أكواب الشاي؛ وصحيح أنه يمضغ الطعام بصوت مرتفع ويلحس ملعقة الشاي بعد تقليبه؛ وصحيح أنه يجز على أسنانه وهو نائم محدثًا صريرًا مزعجًا، لكنه كان أفضل الموجودين لأنه ببساطة لا وجود لهم.

مع مرور الوقت بدأ "عبد السميع" يصفع سعاد ويسُبُّها ويركلها ويجرُّها من شعرها ويخونها ويكذب عليها ويمتهن كرامتها ويُقتِّرُ عليها ويُقلِّلُ من شأنها ويحتقرها وينفر منها ويقارنها بغيرها ويجرح أنوثتها ويطعن كبرياءها.

لماذا يقهر الرجل المرأة على هذا النحو؟ هل من الرجولة أن يتحكم الرجل في هذا المخلوق المهيض بدعوى القوامة أو الذكورة؟ كم من فتاةٍ فَقَدَت الرغبة في الحياة وأوشكت أن تقتل نفسها بسبب رجل غبي متعجرف منحط ومتكبر؟! كم من فتاة أمست باكية مكسورة متوجعة بسبب رجل فظٍّ خسيس متسلط ومتنطع؟!

نهش السرطان ثدي سعاد وأصبح الهواء يلهـو في مـشد صـدرها! تخلى عنها "العجلاتي" فماذا سيفعل بـامرأة بـلا صـدر؟! مـا أُوفى هـذا المخلوق المسمى بالرجل حين يستبدل زوجته لأن عارضًا قد أصابها! ما أوفى هذا المخلوق المسمى بالرجل حين يتزوج على امرأته بعـد انقـضاء شهرين على وفاتها! ما أوفى هذا المخلوق المسمى بالرجـل حـين "يأكـل زوجته لحمًا ويرميها عظمًا"!

لطالما ذكَّرني عبد السميع هذا بحـشرة الزيـز.[1] يتخـذ ذكـر الزيـز لنفسه ست زوجاتٍ أو سبعًا، تقوم كل واحـدة مـنهن بعمـل حفـرة في الثرى ثم تدلف فيها تاركة رأسها فقط ناتئًا على وجه الأديـم؛ وتبـدأ في وضع البيض، عندما يتأكد سيدهن من وضعهن جميعًـا للبـيض بـشكل سليم يتنقل بينهن ويفصل رؤوسهن عن أجسادهن عن طريـق العـض بينما يبقى الجسم في الحفرة لتتغـذى عليـه الذريـة بعـد الفقـس! حقًّـا.. الحقير لا يكفيه دمارك، بل يبني نفسه من حطامك وبقياك وأشلائك.

لطالما كانت سعاد تردد قبل زواجها أن ظِلَّ رجل أفضل مـن ظـل حائط، وأنا أقول لها: إذا كان هذا الرجل من عينة عبد السميع وشاكلته فظل "دبوس إبرة" قرب ساعة الزوال أفضل منه.

في يوم من الأيام ألقت نفسها من النافذة لتنزل جثـة هامـدة، حـين شاهدت سعاد متفسخة أنكرت وجودي والـزمن الـذي يمـضي حـولي

---

(1) Cicada.

والأماكن التي أعرفها، لا بد أنني أُشاهِدُ عرضًا سخيفًا، فهمتُ وقتها لماذا انتحرت "مارلين مونرو" و"فيرجينيا وولف" و"سيلفيا بليث" و"عنايات الزيات" وأخريات؟

(٩)

(أن تَخدَعَك زوجتُك الأولى قهر!)

حلت ببيتنا ظلمة بعد أن رحلت عنه شموعه: أمـي وأبي وأختـي. مَن قال إن البيـوت حيطـان وخـشب وبـلاط وميـاه وكهربـاء وأثـاث وحسب؟!

مرَّت الأيام ثقيلة وكئيبة، هَجَرَ الحمامُ الغِيَّة التي أقمناها أنـا وأمـي في الشُّرفة، في يوم من الأيـام شـممتُ رائحـة نتنـة في الـشقة، فتتبعـت مصدرها فرأيت سلحفاة أختي سـعاد التـي تمكـث بالـشهور في بيـات شتوي مقلوبة على ظهرها وميتة.

لا أستطيع أن أصف لكم إحـساسي وشـعوري، رحـتُ أتجـوَّلُ في البيت وأُحدِّق إلى ثناياه.. هذه رسوم أختي سعاد كما علقتها مـن زمـان وهذه صور لاعبي كرة القدم في فريق الاتحاد الـسكندري، هـذه بندقيـة الرش الخاصة بجدي لأمي والتي ورثتها واعتـدتُ صـيد الـيمام بهـا في

سموحة، هنا كنتُ أختبئ حتى لا تعطيني أمي حقنة البنسلين، هنا كـان يجلس أبي يضع راتبه على راتب أمي ليحسب النفقات والمصروفات ثـم ينتهي الأمر بشجارهما.

شـعرتُ بالوحـدة، واشـتهيتُ الـصُّحبة والمـرأة، ضَـجَّ جـسمي بالشكوى حتى تمنيتُ لو تناسل بنو البشر وتكاثروا بحبوب اللقاح مثل النبات، كم مـن الرجـال اشـتهوا لحـم النـساء ولم يتنـاولوه أو يـشموه واكتفوا بالنظر والبحلقة! كم مـن الرجـال أنَّـت خـصياتهم وانتفخـت أوداجهم فلم يجدوا غير الوسائد يبثون لهـا إحبـاطهم، مـا أقـسى عـلى الرجل أن يشتهي النساء ولا ينال منهن شيئًا! لا تهتم به امرأة أبدًا.. تمـر عليه مواسم للزواج ويخرج منها مكسور الخاطر خفيض الـرأس، لمـاذا يحصلُ شخصٌ على كل ما يريد من مال ويعيش آخر محرومًا مُـشتاقًا إلى امرأة يبث لها همه فتسمعه وتواسيه وتمشط شعره بأناملها وتخبره أنـه مـا زال في الحياة أمل؟!

تزوجـتُ "ناهـد" بطريقـة تقليديـة بحتـة فـيما يُعـرف بـزواج الصالونات، لم أُغيِّر من الأثاث سوى غرفة النوم، رفعتُ كفاءة الحـمام، وقررتُ دهان الشقة، كانت المرأة مُطلَّقة ولديها ولد مـن زوجهـا الأول آلت حضانته إلى أمها بعد زواجي بها.

تبيَّن أنها ليست ناهدًا عـلى الإطـلاق، بـل امـرأة ممـسوحة الـصدر تمتلك ثديين في حجم بيض الدجاج، كانت مقوسة الساقين وحظُّها من الجمال قليلًا، وحظُّها من الثقافة أقل.

عِشتُ بين كتبي وأبحاثي واكتفت هي بالمذياع وإعداد الطعام وزيارة الجيران، لم تعترض كثيرًا على إهمالي لها لأنها أيقنت بفطرة الأنثى أنها لا تملك الكثير لتقدمه لي.

عافتها نفسي بالكلية لسبب لا أعلمه. عاشرتُها كالآلة الميكانيكية وبإيقاع عقرب الدقائق، واقعتها خمس مرات طيلة فترة زواجنا وددتُ خلالها لو غطيت وجهها بالصحف كالموتى على الطرق السريعة، استعضتُ عن ذلك بإغماض عيني والاستمتاع بعرض الأضواء الداخلية، وبَّختُ نفسي كثيرًا وحاولتُ أن أفعل شيئًا مختلفًا، لكن لم أُفلِحْ، شيء ما بداخلي يرفضها.

كم من المرات قمتُ عنها في لحظات النشوة لأدون ملحوظة عن كلمة أو كلمتين؟! وكم من المرات ندمت على فعل هذا الأمر ونويت عدم تكراره، لكن دون جدوى؟! يقولون: إن من يفكر في امرأة أخرى وهو يعاشر زوجته فكأنه يزني، لم أكن أفكر في امرأة أخرى، بل في معشوقتي الأبدية، الكلمات.

الكلمات مثل النساء منها الرشيقة ومنها الممتلئة؛ منها القصيرة ومنها الطويلة؛ منها خفيفة الوَقْعِ ومنها ثقيلة الدم؛ منها المعسولة ومنها المُرَّة المُنفِّرة؛ منها من له وجه واحد ومنها من هو "بوجهين"؛ منها الرقيقة ومنها الفجَّة الصادمة؛ منها القديمة كالخمر المُعتَّقة ومنها الجديدة التي على كل لسان.

أقنعت ناهد أن بعض الرجال قليلي شهوة البطن والفرج فلا يأكلون إلا عندما يضربهم الجوع ولا يعاشرون زوجاتهم إلا ليخرجوا فضلة من فضلات الجسم كالبلغم والبول! آخرون يمضغون النساء كما يفعلون بالكراعيين، ما إن يلجوا امرأة حتى يديروا الطيار الإلكتروني، ولا يوقفونه إلا عندما تحط طائراتهم على المدرج، لستُ من النوع الأخير.

أبرتني ناهد من المُؤَخَّر وطلبت الطلاق فنالته، عادت إلى زوجها وطفلها، تبيَّن أن زوجها كان قد طلَّقها طلاقًا بائنًا ببينونة كبرى، وكانا في حاجة لُمحلِّلٍ، أبلغهم أحد الشيوخ أنه لا يصح شراء مُحلِّل بالنقود، وأن ما يُعرض في الأفلام المصرية التافهة عن هذا الأمر محض تلفيق، أوكلوا الأمر لخاطبة لم تجد أتفه مني.

كان إحساسي في محله، لذا جفلتُ عن معاشرتها، ساعدتُ على لَمِّ شمل الأسرة، ولعبت دور التيس المستعار بامتياز!

لحظة التنوير كانت يوم أن طلقتها، يومها فقط اكتشفتُ أنها كانت تأخذ حبوب منع الحمل، ويومها فقط ذهبت إلى مركز الدروس الخصوصية الذي شاهدت وقابلت فيه رانيا، وقفت هناك طويلًا أستحضرُ صوتها وضحكتها ولمسات أصابعها، وأدركتُ أني أحبُّها في تلك اللحظة أكثر من أي وقتٍ مضى.

(١٠)

(أن تَخونَك زوجتُك الثانية قهر!)

كنتُ قد حصلت على الماجستير، وفكرتُ في الزواج ثانيـةً بطريقـة عشوائية تفتقد للحكمة، لم أقم على خير وجه بـالتحرِّي والتقـصي عـن أسرة العروس. لا أتعلمُ من أخطائي.

قابلتُها مصادفةً، ومَرَّ كل شيء بسرعة، حين أذهب لشراء ملابـسي أدخل أول محل أصادفه وأبتاع منه مـا أريـد، لا بـد أن أعـترف أن هـذا الأمر يـسبب لي مـشكلاتٍ جمـة. لا بـد أن أعـترف أن الزوجـة ليـست سروالًا أو قميصًا، لكن هذا ما حدث.

أمضينا أنا و"دلال" أسبوعًا رائعًـا في الـساحل الـشمالي، أظهـرت مهارات خارقة في الرقص والغنج، في يوم الدخلة قبلتنـي حتـى كـدتُ أختنقُ، وظلت تُقلبني يمينًا ويسارًا على جنبي وأنـا بـداخلها، سـحقت ضلوعي بضمتها وهزتها.

لديها مخزون لا ينضب من النكات والقصص القبيحة، تُشير إلى الأعضاء الجنسية بالكلمات الصريحة، تفشي أسرار صديقاتها وتصف لي أدق تفاصيل أجسامهن، تحرق كميات هائلة من السعرات الحرارية أثناء الجماع، ربما هذا يُفسر سبب اشتهائها الدائم للطعام، تنام وساقاها العاريتان منفرجتان كالزرافة، وتشكلان رقم ثمانية فتظن أن الهرم الأكبر يقبع بين فخذيها.

لم أشعر بأنها توجعت كثيرا أو تألمت حين غشيتها لأول مرة؛ ولم أعاين ولو نقطة واحدة أتباهى بها من دمائها، أثار هذا الأمر بعضًا من شكوكي ومخاوفي، قمتُ عنها وأنا أشعر أني قشرة موز مهلهلة أو باذنجانة حشوٍ مجوفة أو عود قصب بعد خروجه من ماكينة العصر.

عدنا إلى الإسكندرية، ورجعتُ إلى عملي الذي تعرف دلال طبيعته، لذا فلم تتململ أو تتبرم من غيابي المتكرر، وعلى هذا المنوال سارت أيامي، أعود إلى البيت فأتناول طعامي في الردهة أمام التلفاز الذي تدمن دلال مشاهدته، ينتهي يومي في الفراش معها أحيانًا وأحيانًا كثيرة بدونها.

شيء ما ينقصني؟! تسرب إحساس مبكر من الملل إلى حياتي الزوجية لا أدري ما سببه؟! هل هو تعجلي في الارتباط؟ هل لأني صعب الإرضاء؟ هل السبب هو دلال نفسها التي فشلت في تجديد حياتنا وإضفاء نوع من الإثارة على ملابسها وتصفيفات شعرها؟

كان لـدى دلال بعـض المـشكلات لم أسـتطع التكيـف معهـا، ولم أستطع الإفصاح بها حرصًا عـلى مـشاعرها: صـوتها مرتفـع ومـزعج؛ وتـستخدم بعـض الألفـاظ الـسوقية الـصادمة؛ تـسمع أغـاني هابطـة؛ والمفارقة هي أنها تصدر عـن نفـس المـسجل الـذي طالمـا سـمعت فيـه موسيقى "شوبان" و"باخ"، تُسرف في تناول البـصل، شـهيتها للحـوم تفوق قطيعًا من الضباع أو سربًا من أسماك البيرانا، تأكل أشياء عجيبـة: حرنكش ومخاصي.. بيتها دائمًا متسخ. لا تغير ملاءات الفـراش. رائحـة عرقهـا لا تطـاق. رائحـة فمهـا كريهـة، جـسمها مـليء بـالبثور، تُرقِّـق حاجبيها أمامي، تُنظِّف أسنانها بأظفارها، لا تزيل شعر إبطيها وعانتها، لا تستحم قبل المضاجعة، تتكلم في أثناء النوم.

لم أشعر أن دلال تتلهف لرؤيتي أو لعودتي للمنـزل، لم أشـعر أنهـا مهتمة أن تعرف شيئًا عن أحلامي وطموحاتي، لم أشعر أن بيننا جـسورًا قوية من التفاهم ونقط الالتقاء، مما زاد الطـين بلـه هـو أنهـا لم تـسعَ إلى الإنجـاب منـي؛ ولم أشـعر أن هـذا الموضـوع يُؤرِّقُهـا أو يُمثِّـل لهـا أي مشكلة.

في يوم شعرت بالتعب فاعتذرت عـن محـاضراتي وعـدتُ للبيـت، كان صوت التلفاز عاليًا كالعادة ويبث أغاني فجـة مقيتـة، لكـن دلال لم تكن بالردهة، توقعت أنهـا في المطـبخ، سرتُ نحـو غرفتـي كالـسائرين نيامًا. اقتربتُ من الحجرة وأنا أسمعُ أصوات طقطقة وصريـرًا وهمهمـةً وغمغمةً، وجدت أربع أقدام وعشرين أصبعًا تخرج مـن تحـت مفـرش

السرير الذي طرزته أمي بيديها وتعزف موسيقى الهوس، ظننت في البداية أن دلال في طور التحول، لكن الدهشة عقدت لساني حين وجدتها في حالة غير مسبوقة من النشوة.

تصلبت في مكاني ووقفت مذهولًا! أحسستُ أن دلال هي المرأة التي ثبتت الرايات الحمراء عبر التاريخ، أحسستُ أنها هي من تسكعت في شوارع "عماد الدين" و"محمد علي" و"كلوت بك"، أحسستُ أنها اختزلت تاريخ العاهرات والخائنات برُمَّته، أحسستُ أن اسمها ولا سواه يحتل قاموس الكلمات البذيئة: عاهرة وداعرة وبائعة هوى ومومس وبغي وقوادة.

يمكنك فهم تقنية النانو، وكيف يعمل المكوك الفضائي، وكيف تتم جراحات المخ، وكيف تعيش الكائنات الحية في أعماق البحار، لكنك لن تفهم المرأة، وإذا فهمتها فإنك لن تفهم دلال ونفسيتها الملوثة! حتى "فرويد" و"يانج" و"إدلر" و"بافالوف" سيعجزعن تحليل شخصيتها!

وقفت هناك بلا حراك! أليس هذا شيئًا عجيبًا؟! من الذي روض أعصابي؟ مَن الذي قطّع شراييني؟ من الذي أخرس لساني؟ من الذي سرق فرحي؟ من الذي دجَّن دمي؟ من الذي أطفأ نور الأمل في عيني؟ كيف فرغ قلبي؟ كيف ابتسرت أحلامي؟ كيف لان عزمي؟ كيف شاخت أيامي؟

أنا رجل التوافقات، أنا رجل الحلول الوسط، لا أحبُّ المصادمات ولا المشاحنات، أنا من يمتلك أكبر مساحة رمادية في الوجود يَحُدُّها يمينًا ويسارًا هامش بسيط من الأبيض والأسود يكاد لا يُرى بالعين المجردة. الرمادي لوني المُفضَّل، الرمادي أجمل لون في الوجود.

لو أن "كامل الشناوي" كان معي على باب الغرفة لقدم اعتذارًا عن أغنيته الشهيرة "لا تكذبي" لأن حبيبته أو أيًّا كان نعتها كانت أكثر عفة أو قل أقل قُبحًا. "عيناك في عينيه... في شفتيه... في كفيه... في قدميه ويداك ضارعتان... ترتعشان من لهف عليه." ليت الأمر انتهى عند هذا الحد، لكن الفارسة همزت الحصان ودنست الفراش.

ارتدى الرجل ملابسه على عجلٍ، وقفَ مذهولًا من استسلامي الغريب انطلق وهو مرتاب نحو باب الشقة ثم هرول عدوًا على السلالم غير مصدق أنه نجا ولسان حاله يقول: "اعذرني. ما أشهى الطعام الذي لا تدفع ثمنه والمال الذي لا تتعب فيه والمرأة التي لا تربطك بها صلة"، وكأني به يردد مع جبران: الخيانة شيء جميل.. نعم جميل.. ما العجب؟ لو لم تكن الخيانة شيء جميل، فلِمَ نخون؟ نخون ونقول إن الخيانة من أقبح ما يكون!

أشاحت دلال بنظرها بعيدًا عني وطأطأت رأسها. أحضرتُ دفترًا وقلمًا ووقعت دون صخب على تنازل عن حقوقها. جمعت أغراضها وغادرت الشقة خفيضة الجبين لا تقوى على رفع عينيها عن الأرض.

حلمت بتخـاريف كثـيرة تلـك الليلـة، رأيـتُ دلال تـستحم مـع عشيقها، الطرزان الأصلع في "البانيو" بينما وقفت أنا أتبـول علـيهما، في اليوم الثاني رأيت العشيق يضع طرف الواقي في فم الصنبور حتى امـتلأ بالمياه فزاد حجمه وانتفخ ثم انفجر فأغرقني ووقع الرجل عـلى الأرض من الضحك، في اليوم الثالث رأيتُ كلبًا أسود يفترس قطتـي، في اليـوم الرابع رأيت أنثى العنكبوت، الأرملة السوداء، وهي تنقض على زوجها فتأكله، في اليوم الخامس رأيتُ يدًا مُشعرة تعصر خـصيتي حتـى كـدتُ أموتُ، في اليوم السادس رأيتُ دودًا يخـرج مـن رحـم دلال في مـشهد أقرب لأنثى العقرب حين ينشق ظهرهـا فتنـزل منـه ذريتهـا، في اليـوم السابع انقطعت عنـي الأحـلام المزعجـة، رأيـت رانيـا، وأدركـتُ كـم أشتاقُ إليها!

(١١)

(أن تَخلَعَك زوجتُك الثالثة قهر!)

تزوجت هناء في ظروف خاصة في أثناء دراستي للدكتوراه في الخارج، كنتُ زبونًا مُستدامًا في نوعية من المطاعم تُعرف بـ "كل ما تشاء".[1] مقابل عشرة دولارات تستطيع تناول كل ما تريد، من يشاهدني داخله سيراوده شعور أني مشترك في إحدى مسابقات الطعام أو شخص "يأكل في آخر زاده". الحقيقة كنت أتقوتُ على هذه الوجبة طيلة اليوم.

لم أكسر هذه القاعدة سوى مرة واحدة حصلت فيها بمحض المصادفة على دعوة مجانية لتناول العشاء في مطعم فاخر، كان الطعام لذيذًا وشهيًّا وغريبًا: "الكافيار" الأبيض وسمك "الفوجو" وعسل

---

(1) Eat All You Can.

السدر وفطر الكمأة البيضاء وستيك "كوبي" وجوز "المكاديميا" وجبن "الكشكوان" وشيكولاته "الجناش".

وفَّر المطعم ما يعرف بـ "شنطة الكلب"[1] يضعون لك فيها بواقي الطعام على أساس أنه للكلب. لا بأس ليس لديَّ كلب على أي حال، وضعت اللفة في ثلاجة الغرفة وتناولتُ ما فيها من طعام في اليوم التالي.

قابلت هناء في المطعم الثاني، كانت في رحلة ترفيهية مع والدها الثري، اكتشفتُ أنها فارغة العقل ولا تشاركني أيًّا من اهتماماتي، وافقت على ترك شقتي لأقيم معها في فيلا والدها على بحيرة كينج مريوط، عكفتُ على أبحاثي ودراساتي بينما راحت هي تلهو وتسهر وتعربد.

عيَّرتني بأنها أقرضتني المال في الغربة لأنهي بعثتي، وأنها أكسبتني الوجاهة الاجتماعية بالزواج بي. قالت حين سألتها عن سبب زواجها بي: "أن مَن اعتاد أكل لحم الغزال يتوق أحيانًا إلى لحم الدجاج؛ وأن من يتناول ثمرة مانجو كل يوم يحنُّ إلى التين الشوكي؛ وأن مَن يألف النوم على ريش النعام لا يجد بأسًا من أن يجرب النوم على القش."

تُشبه إلى حد كبير شخصية "يولند" في "الخيط الرفيع" وهي تقول للأستاذ: "صنعت منك إنسانًا بعد أن كنتَ مسخًا."[1] أوصلتني لمرحلة كنت أفضل فيها النوم بين كتبي عن الرقاد بجوارها.

---

(1) Doggie bag.

أعطيتها بسلبيتي وترددي وصفة لخنوع الرجل وخضوعه. ما إن اكتشفت أني أعاني أنيميا في الشخصية حتى استأسدت واستنمرت. الحقيقة التي يجب الإقرار بها هي أنني فاشل في التعامل مع البشر وأفتقدُ للذكاء الاجتماعي في مواقف كثيرة وأخسر تعاطف الناس معي لهذا السبب؟

جميلة، لكنها اختزلت قبح الأخلاق، قبح القلوب أسوأ من قبح الأجسام، كانت مزعجة ومبتذلة، تحبُّ التعري بكل أشكاله ولا تطيق الملابس. تُقبِّل معارفها من الرجال، تشرب البيرة والسجائر وربما ما هو أكثر، تسخر من كل التقاليد، تُمعِنُ في إهانة الناس، تستخفُّ بأفكاري وعلمي، فعلًا الفقر الحقيقي هو فقر العقول، لا فقر الجيوب.

كانت مُركَّبًا عضويًّا من زوجتي لوط ونوح، تفوق زوجة سقراط في سلاطة لسانها، اعتاد الأخير الهروب من البيت من الشروق إلى الغروب، كانت زوجته تهينه أمام تلاميذه، في يوم من الأيام سكبت دلوًا من الماء فوق رأسه وهو يحاضر، إلى الجحيم يا هناء، هكذا حدثت نفسي، من المفارقة أني لم أهنأ معها يومًا واحدًا، اسم على غير مسمى.

قالت عني أشياء كثيرة بعضها صحيح والبعض الآخر محض تلفيق وافتراء، ترددت في قبول المبلغ الذي عرضته للخُلع، لكني أخذتُه في النهاية، أحتاج إلى المال لأكمل أبحاثي في اللغويات التاريخية، أحمدُ الله

---

(١) إحسان عبد القدوس، آسف لم أعد أستطيع، دار أخبار اليوم، القاهرة، ١٩٨٠.

أنها لم تنجب مني، أضعتُ من عمـري خمـسة أعـوام معهـا فـضلًا عـن تأخري في الزواج.

الدرس الوحيد الذي خرجت به أني لم أُخلق لهـا ولم تُخلـق لي، وأني ما زلتُ أحبُّ رانيا، كم هي متشابكة علاقات الحب! وكم هي حزينـة! فهناك حبٌّ ينبذنا وحب ننبذه، حبٌّ ينتظرنا وحب ننتظره. نحـبُّ مَـن لا يحبنا ويحبنا من لا نحبه.

في اللحظة التي يتكون فيهـا مثلـث العـشق تـدرك عـلى الفـور أن بوصلة المحبين أخطأت الوجهة تمامًا كما وصل "كولومبس" إلى أمريكـا وهو يظن أنها جزر الهند، مُثلث العشق الـذي تطـول وتقـصر أضـلاعه وتحتدُّ وتنفرج زواياه هو مثلث الحب والوجد والهوى، المثلـث الأبـدي للبُعد والصَّدِّ والجـوى، مثلـث برمـودا الـذي أغـرق ملايـين القلـوب المبحرة بلا أشرعةٍ أو قلوع.

إنه مثلث العشق والحزن والموت الذي يلتقي فيه ضـلعان فقـط في كل اتجاه من الاتجاهات الأصلية بيـنما يبقـى الثالـث خـارج الحـسابات الهندسية، خارج المشاعر الإنسانية.. خارج الزمن، إنه المثلث الذي جمـع "جوينفر والملك آرثر ولانسيلوت" أو ذاك الذي جمع "مارك وتريستان وإيزولد" وكذا ابـن "زيـدون وابـن عبـدون وولادة بنـت المـستكفي" و"قيس وورد وليلى".

(١٢)

(أن تسرقك زوجتك الرابعة قهر!)

قررتُ أن أُجرِّبَ حظي في السفر، فحصلت على عقد بإحدى الجامعات السعودية. أنهيتُ إجراءات الإجازة بدون راتب ووثَّقت شهاداتي وأودعتُ سيارتي أحد الجراجات.

يُوفِّر فرع الجامعة في هذه المدينة إقامة للمتزوجين من أعضاء هيئة التدريس فيما يُسمى في المملكة بسكن "العوائل"، أما أنا فقد استأجرتُ بيتًا صغيرًا في البلدة، ودارت عجلة الأيام، وكلها متشابهة كنسخة بالكربون.

استيقظت في الهزيع الثالث من الليل على رنة الهاتف المخصصة للرسائل، قمتُ فزعًا، فوجدت قطتي "نيجريس" تجلس أمامي وتنظر إليَّ وكأنها حارس على تابوت فرعوني، تسمَّرتُ أمام الرسالة التي تكونت من ثلاث كلمات وحسب، "تُوفي الدكتور تميم"، فقدتُ

تركيزي لثوانٍ بسبب هول الصدمة، كان يحلم بالعودة إلى سوريا والمساهمة في تعميرها بعد الخراب الذي لَحِقَ بها، صلينا الظهر على الرجل ودفناه في مقبرة البلدة.

بعد أسبوع من وفاة الدكتور تميم زارني الدكتور هشام المصري والدكتور نائل الأردني والدكتور رأفت السوري، قدمت لهم واجب الضيافة، وجلسوا يدللون "نيجريس". انطلق رأفت قائلًا:

- دكتور منصور.. لقد جئتُك اليوم أُخاطِبُ فيك شهامة المصريين.

- خير يا دكتور؟

- استمع إليّ جيدًا.. مات الدكتور تميم وامرأته على وشك الوضع. ولدت أرملته أمس طفلة جميلة أطلقت عليها اسم "إيميسا" كما أراد والدها.

- حسن.. وبعد؟!

- رفعنا طلبًا للسلطات السعودية لمنح زوجة تميم الإقامة، لكن الأمر باء بالفشل.

أخذ نائل بتلابيب الحديث قائلًا:

- لا يمكن أن تبقى المرأة ما دام لا يوجد لها محرم.

- حسن... ماذا يمكنني أن أفعل أو أن أُقدِّمه لكم؟!

-   نريدك أن تتزوج هذه الأرملة، ولك ثواب الستر. نحن لا نريد أن نجبرك على شيء، لكنه عمل فيه خير وثواب. بمجرد أن تعقد عليها تحصل أم "إيميسا" على إقامة بالمملكة، وبمجرد أن تُسجل مسكن الجامعة باسمك يصبح لها الحق في الاحتفاظ به.

-   لكن..

-   أُناشِدُك أن تفكر بروية، تأكد أنك لن تندم على فعل الخير.

تَمَّ كل شيء حسب ما خُطط له وبأقصى سرعة لأن المرأة بلا عدة. أصبحتُ الآن متزوجًا للمرة الرابعة، لكن مع إيقاف التنفيذ.

قابلني اثنان من رجال هيئة الأمر بالمعروف عقب صلاة الجمعة الثالثة لزواجي، انتحيا بي وأخبراني بما يساورهما من ظنون، قالا لي إنه لا يصح أن أترك زوجتي بمفردها في مسكن وأعيش في آخر، أخبرتهما أن المرأة ما زالت في النفاس والحداد على زوجها، لكنهما لم يُبديا تفهُّمًا لهذا الأمر وأمهلاني نهاية الأسبوع لأنتقل للإقامة مع حرمتي، وإلا اتخذا إجراءات بحقي وحقها.

أخبرت النفر الثلاثة الذين زاروني وأقنعوني بالزواج بـ"سميرة" بالأمر فأبلغوني أنهم سيفتحون الأمر معها عن طريق زوجاتهم، في الصباح جاءني الرد، تقول سميرة: "البيت بيتك، وإنما هي ضيفة فيه، وأنها لا ترضى لك الضرر، وجزاك الله خيرًا عما فعلت."

فعلًا اتخذتُ إجراءات نحو التصرف في الأثاث، بحثتُ عن قطتي، لكنها اختفت كما لو كانت الأرض انشقت وبلعتها! تركت الشقة وحملت أغراضي وانطلقتُ نحو مساكن أعضاء هيئة التدريس وقلبي يدقُّ كالمدش النُّحاسي القديم.

في الميعاد المقرر لوصولي الشقة وجدتُ بابها مواربًا. نقرت على الباب ثم دخلت وأوصدته خلفي، وضعتُ حاجياتي وأغراضي وكتبي في الرُّدهة، جلستُ على الأريكة لا أعرف كيفية التصرف، وماذا يتعين عليّ أن أفعل؟! وجدتُ نسخة من مفتاح الشقة على الطاولة، لا بد أن سميرة وضعته هنا من أجلي، مسكتُ بالمفتاح ورحتُ أقلبه في يدي وقد تملكني الارتباك.

من حُسن الحظ أن الشقة كان بها حمامان، أحدهما للضيوف تَلِجُ فيه مباشرة من الردهة والآخر بجوار المطبخ بين غرفتي النوم اللتين يفصلهما عن مدخل الشقة طرقة طويلة نسبيًّا، نمتُ على الأريكة في الردهة.

تعمدتُ البقاء في الجامعة فتراتٍ أطول، بعد الانتهاء من عملي أجلسُ للقراءة، أتناول وجباتي البائسة في مطعم الجامعة، أستحمُّ هناك وأرسلُ ملابسي المتسخة إلى المغسلة، أعودُ إلى المنزل ليلًا، أدقُّ الجرس ثلاث مرات متتالية قبل أن أفتح الباب، بعد أقل من ربع ساعة أغطُّ في نوم ثقيل، عندما تسلَّمتُ راتبي وضعتُ مبلغًا في ظرف وتركته على

المنضدة، أخذته سميرة، تتصل بالبقالة أو بالـصيدلية فيرسـلون لهـا مـا تريد.

في يوم من الأيـام عـدتُ إلى المنـزل ولم أشـعر بوجـود سـميرة ولا ابنتها، توجهتُ نحو غرفة نومهما على أصابع قدمي فتأكـدتُ مـن خلـوِّ الدار، تعجبت من ذلك، لكني انتهزتُ الفرصة فعاينتُ أغراض سميرة ومتاعها لعلي أعثر على صورة لها، وقعت يدي على مشد صدر حريـري جميل من النوعية الغالية، أخذتُ اشـتمُّه وأُدخـل يـدي في تجويفـه ربـما لأحدد حجم نهديها.

قبل أن أُتمم مهمتي أحسستُ بصوت بكاء الرضـيعة عـلى البـاب. أُسقط في يديَّ ولم أعرف كيـف أتـصرف؟! دسـستُ حمالـة الـصدر في جيبي، وعدتُ أدراجي بسرعة البرق وجلـست عـلى الأريكـة، فتحـت سميرة الباب فوجمتُ حين رأتني. وجدتْ امرأةً طويلة ورشيقة، كانـت منتقبة بطبيعة الحال. ابتدرتني قائلةً:

- كنتُ.. عند جارتنا السورية.

لم أعلق، ولم أدرِ ماذا أفعل بمشد الصدر الذي في حوزتي؟! قـررت إخفاءه.

مع مرور الوقت زاد التواصل بيننا، لكـن العلاقـة ظلـت مبتـورة، أجلس في الردهة بالساعات أقرأ بيـنما تجلـس سـميرة في حجـرة النـوم تشاهد التلفاز، دفعني الفضول إلى أن أسترقُ النظر إليهـا حـين تـدخل

الحمام أو تنتقل بين الغرفتين، لمحتُ قدميها، كانتا صغيرتين وشديدتي البياض والتورد.

بعد قرابة أسبوع تركت لي سميرة ورقة تطلب مني القيام بعمرة لوالدتها التي قضت في حمص، لم أشأ أن نذهب مع الحملات الجماعية فأعددت خطة للتوجه إلى مكة بسيارتي ذات الدفع الرباعي، الحقيقة تحايلت على الأمر ووجدتها فرصة سانحة لاكتشاف هذه المرأة، وإزالة اللثام عن أسرارها وخباياها.

فعلًا انطلقنا عصر يوم وافق الأربعاء، حين وصلنا مكان الإحرام المعروف بـ "قرن المنازل"، استأجرت شقة مدة ساعتين، كان بها ثلاثة أَسِرَّة، بعد أن اغتسلت ولبست ملابس العمرة، توجهت سميرة بعدي إلى "التواليت". انتظرت هذا المشهد بفارغ الصبر. حتما ستكشف سميرة عن وجهها لأن كشف الوجه من مستوجبات الإحرام.

جلست على حافة السرير أداعب "إيميسا" وأنتظر هذه اللحظة الفارقة، دغدغ صوت مياه "الدش" أعصابي وأنا أتخيلها تجري على جسد سميرة.، فعلًا خرجت من الحمام سافرة الوجه، تسمَّرتُ مكاني وأنا أنظر إلى وجه شديد الجمال والفتنة،. رقص قلبي فرحًا، حاولتُ أن أتحكم في مشاعري، لكن لم أفلح، ارتبكتُ بشدة؛ وحاولت الانشغال بجمع حاجياتنا في الحقيبة وأنا أختلسُ النظرات إلى كل شبر وبوصة فيها، سبحان من صَنَعَ هذا الوجه الصبيح.

في طريق العودة تعطلت السيارة، ولأن لديَّ فكرة عن "ميكانيكا" السيارات فقد حاولت إصلاح العطب، نزلت سميرة من السيارة وعلى يدها "إيميسا"، طلبتُ منها أن تُحضر لي خرقة من حقيبة السيارة لأن يدي كانت متسخة، عادت سميرة بقطعة القماش وقطعة أخرى.

نعم.. مشد الصدر. كنت قد خبأته في حقيبة السيارة ونسيت أمره تمامًا، عقدت الصدمة لساني فلم أرد، تمنيتُ أن تنشقَّ الأرض وتبلعني، ورغم ذلك فأنا مدين لهذه القطعة السوداء فقد اختصرتُ كثيرًا من الإجراءات المعقدة، شعرت سميرة بما نحن مقبلون عليه، فقررت أن تأخذ زمام المبادرة. خرجت عن صمتها وخرجت عن جادتها وخرجت من ملابسها.

فجأة سمعت صوت مشيتها قادمة نحو الردهة، اعشوشبت الأرض تحت قدميها البضتين، كان معها قدحان من الشاي بـــ "الميرامية"، نظرتُ إليها في تطلع، ودعوتها للجلوس على الأريكة، وضعت صينية الشاي وجلست قبالتي، رحتُ أتفرَّس في شعرها الفاحم الناعم وملامحها الدقيقة وعينيها النجلاوين، شعرت ببعض الرهبة ودق قلبي كساعة "بيج بين" معلنا – ربما – عن قرب انفراج الأزمة.

لا بد أن الخطوة القادمة هي العباءة. يا تُرى ماذا ترتدي سميرة تحت هذه العباءة؟ فستانًا؟ قميصًا داخليًّا؟ لا شيء؟ لكن العباءة تحتاج بعض الجرأة، توجهت نحوها، احمرَّ وجهها، قامت معي، قبلتها قبلة

واحدة؛ وقبلتني قبلة الحياة، أحسَّت باهتمامي ففتحت عباءتها لتكشف عن مشد الصدر القديم ومعه القطعة الثانية!

تغير طعم الأيام مائة وثمانين درجة. شعرت أني أطير على السحاب من شدة الفرح والنشوة، أصبحتُ أنتهي من عملي وأُهرعُ إلى البيت لأرى سميرة وآكل من يديها وأرتوي من رحيقها، أصبحت مهووسًا بجسمها دقيق التفاصيل والتعاريج، أدمنتُ لُعابها، في رمضان كنتُ أفطرُ بعد حمد الله على شفتيها وآكل من رضابها.

دارت رحى الأيام وبدأت سميرة في محاصرتي والزن على أذني لأنهي تعاقدي وأعود إلى مصر، ولم أجد سببًا وجيهًا لذلك، لكنني أذعنتُ ونزلتُ على رغبتها في النهاية. إنما يحصل على اللبن الطفل البكاء، وصرير العجلة هو ما يجلب لها الشحم والزيت.

عُدنا إلى الإسكندرية؛ وأعطيتُها مدخراتي لتضيفها إلى ما لديها من مال لتفتح مطعمًا للأكلات السورية في "سموحة" حسب رغبتها، مرت الأيام واشتُهر محل المأكولات السورية، "داريا"، وهذا هو اسمه؛ ودَرَّ على سميرة خيرًا كثيرًا فابتاعت الشقة التي فوقه.

احتجت بعض المال لأجدد سيارتي فطلبته منها، أخبرتني أنها لا تمتلك هذا المبلغ الآن؛ وأن السيولة كلها في المحل. عرضت عليّ إصلاح السيارة ورفع كفاءتها كحلٍّ مؤقت.

بدأت تتكلم عن أملاكها ومتاعها ومالها وذهبها وخرجت أنا من المعادلة. طلبتُ منها رأس المال الذي وضعته في المحل والأرباح

فأنكرتُ ذلك متذرعة بأنني تزوجتها دون مهر أو شبكة؛ وأن هذا المبلغ أقل حقوقها. ذكَّرتها بالملابسات التي أحاطت بزواجنا، ذكَّرتها كيف وقفتُ بجوارها وقت الشدة فأخبرتني أنها ردت الجميل وانتشلتني من اليأس والضياع بعد طلاقي المتكرر وأعادتني إلى الحياة.

شاهدتُ طلاقي الرابع في الأفق، هجرتُ الشقة بضعة أيام أقمتُ خلالها في أحد الفنادق. لم تسع سميرة خلال هذه الفترة للحديث معي أو تطييب خاطري. علمت أنها تُواعِدُ أحد السوريين. أدركتُ أنني كنتُ مطية لها إلى مصر وحسب، وقد نجحت فيما خططت له.

عندما عُدتُ إلى الشقة وجدتُ أنها أخذت أغراضها وبنتها وانتقلت للإقامة في شقتها الجديدة، فهمتُ الرسالة فطلقتُها في صمتٍ واحتسبتُ غربتي ومالي وأيامي معها عند الله، على أي حالٍ لقد طلقتها نفسيًّا وعاطفيا قبل أن أطلقها عند المأذون.

لم أكن أتخيل قط أن هناك من البشر من ينتمون للعائلة الأسفنجية، يتطفلون على أي شيء ويمتصون أي شيء، كانت سميرة حقًّا من فصيلة اللبلابيات ولديها قدرة فذة على التسلق والابتزاز.

كنتُ ساذجًا، وكانت هي حقًّا بارعة في التمثيل والكذب والغش والاحتيال، ويمكنها بيع المياه في حارة السقايين، والرمال لسكان الفيافي، بل الثلج لشعب الإسكيمو!

زلزلت الصدمة كياني، وجددت جروحي القديمة، وأدركتُ من جديد أني ما زلتُ أحبُّ رانيا.

(١٣)

أنا الراوي مرة ثانية؟

بعد هذه التجارب القاسية فَقَدَ منصور توازنه وبعضًا من رشده وبالثقة المرأة، تمنَّى لو بمقدوره أن يذلَّ حواء وكل ما يحمل نون النسوة وتاء التأنيث، تمنَّى لو بمقدوره أن يبصق على كل الخائنات باختلاف قصصهن: دليلة و"استير" وهبة سليم[١] وانشراح موسى[٢] وسالومي و"روكسلانا"[٣] و"ماري أنطوانيت" و"مدام دي بومبادور" و"مارجريت ميلر".

---

(١) جاسوسة مصرية عملت لصالح الموساد. تم إعدامها وتحولت قصتها إلى عمل سينمائي تحت عنوان "الصعود إلى الهاوية".

(٢) جاسوسة مصرية عملت لصالح الموساد وفرت إلى إسرائيل بعد إعدام زوجها.

(٣) زوجة الخليفة العثماني سليمان القانوني. كانت وراء العديد من الفتن في البلاط العثماني.

استمتع بالبصق ووسَّع دائرته، البصق في الرحم عوضًا عن البصق على الوجوه في الصحف والمجلات وشاشات التلفاز.

بدأ بموظفة خليعة في الجامعة كانت كما يقولون بالدارجة "قنبلة"، لو كان ممن يصنعون القرار في مصر لأمم هذه الفتاة كما فعل عبد الناصر بقناة السويس.

كانت تتلذذ برؤية نفسها على الفراش في عيون معجبيها وتعشق ملاحقة الرجال لها وتجمعهم حولها ومحاولتهم التقرب إليها وخروج أعينهم عليها ومصمصة شفاههم وتنهيداتهم وإيحاءاتهم.

لطالما حلم بها على جميع الأوجه والصور، فتارة يجد نفسه غوَّاصًا في شاطئ للعراة يهم لإنقاذها من موج يتحرش بها، وتارة يرى نفسه كاهنًا يفض بكارتها، وتارة أخرى يرى نفسه طبيب نساء وقد أُغلق باب العيادة عليهما. تارة يراها في لبس العصر الحجري نائمة تحت الأشجار الوارفة، وتارة أخرى يرى نفسه طواشيًا يضع مروحة طويلة بين ساقيه ويهوي بها عليها وقد ارتدت ملابس شفافة فاضحة وراحت ترقص وتتلوى على الأرض.

كم من المرات تمنى أن ينعم بجمالها ولو خمس دقائق فقط تكون فيها ملكه! ترافقه إلى حمام البخار؛ وهناك تقص أظفاره وتنعم كعبيه وتدعك جسمه بكريم الزنجبيل والقرفة والقرنفل والريحان وتغسل قدميه بماء الورد والياسمين، ثم تُلبسه روبًا وثيرًا بعد أن تمرره على الأدخنة المنبعثة من بخور المسك الهندي.

في أحد الأيام تصادف وجودهما بمصعد أحد الفنادق خلال فعالية تنظمها الجامعة. راحت حينا تعضُّ على شفتيها، وحينًا تحرك كعبيها في الحذاء الخفيف صعودًا وهبوطًا.

نظر منصور إلى أصابع قدميها النظيفة المتناسقة ثم رفع عينيه ليمسح ما تبقى من مفاتنها، نظر إلى تنورتها القصيرة وإلى زر بلوزتها العلوي الذي كاد ينخلع من مكانه بفعل الضغط من صدرها المنفجر.

تمنَّى في هذه اللحظة لو امتلك نظارة تُظهر الناس عراة كما ولدتهم أمهاتهم، ما أشد الشبه بين "سها" و"شيرلي" ماكلين في فيلم "إيرما لا دوس"! سال لعابه حتى ملأ فمه وسرح خياله فوصل أقصى مدى، لم يشعر بنفسه إلا وهو يفرك ويهصر صدرها بشهوانية!

عرف بعد أن شب أن رزقه كان قليلًا لأن اللبن جفَّ في صدر أمه فاستعاضت عنه بالألبان الصناعية، ربما كان هذا سبب ولعه الشديد بالأثداء حتى أنه كان لا يأكل غيرها في الدجاج والأرانب والبط وخلافه. يقول نزار قباني "في البدء كان النهد." كان منصور شغوفًا بهذا الشيء مفتونًا به.

أفاق من حالته معتقدًا أنه خسر كل شيء، لكن سها لم تعترض! تعجب حين وجدها ترتمي في صدره واضعة يدها بين فخذيه! أدرك أنه تأخر كثيرًا في الإمساك بنهديها، وتمنَّى لو تعطل هذا "الأسانسير" أو صعد إلى القمر، أقنعها بأن تمضي الليلة في شقته.

أخيرًا بعد سنوات سها بجسدها المذهل بين يديه، أحضرت معها

شريط "كاسيت" ثم بدأت ترقص رقصًا شـهوانيًّا، ارتـوى منهـا حتـى الثمالة، لم ينم معها، بل اغتصبها بكل ما تحمله الكلمة.

شـعر بـسعادة طاغيـة حـين ارتعـش جـسمها وتخـشبت سـاقاها وانقلبت عينيها. أخذ استراحة محارب ثم عاود الكـرة قاذفًـا فيهـا كـل كرهه لتنطعها وعُهرها واستهتارها وطيشها، الغريب أنها كانت مُنتـشيةً وسعيدة بـما حـدث لهـا وخرجـت مـن الـشقة ببقـع زرقـاء في كتفيهـا وزراعيها وساقيها.

ملأت الشقة والدنيا صراخًا الأمر الذي اضطره لوضع كفه اليمنى في فمها، ذكَّرته سها بما قرأه عن الجارية "ظُلمة" التي يضرب بها المثل في العُهر والقوادة. كان لها تيس تؤجره ليعشر ماعز القوم، وكانـت تجلـس لتتابع المضاجعة لأنها تحب صوت الجماع.

ذكَّرته أيضا بعائشة بنت طلحة حين دعاها زوجها للفـراش وكـان عندها ضيفة فغابت فترة ثم عادت إليها وجبينها يتفصد عرقًـا، بادرتهـا الضيفة مـستنكرة نخيرهـا وشـخيرها وهـي مـن بيـت عـربي أصـيل، فأجابتها عائشة: "إن الخيل الأصيلة تشرب بالصفير".

لا يدري لكن سها ذكرته كذلك بولادة بنت المستكفي وهي تقول: "وأمكن عاشقي من صحن خدي، وأُعطي قبلتي من يشتهيها".

صحيح أنه استمتع تلك الليلة، لكن طيف رانيا حاصره حتى راح في النوم، بطبيعة الحال لا يعـرف شـيئًا عنهـا، لا بـد أنهـا قـد تزوجـت وأنجبت، أو ربما دخلت الدير أو تراها هاجرت إلى كندا أو نيوزلنـدا أو أستراليا كما تفعل طائفة كبيرة من قبط مصر.

(١٤)

وتلاطمت الأيام على صخور حياته، سافر منصور لحضور مؤتمر في أنقرة ومنها قصد إسطنبول، قطع جسر البوسفور المعلق على قدميه، لاح من بعيد رمزان شهيران للشرق والغرب: "آيا صوفيا" وجامع السلطان أحمد. وقفت بجواره فتاة شقراء شديدة الجمال. نظرت إليه قائلة:

- منظر خلاب، أليس كذلك؟

- نعم. هنا يتقابل الشرق مع الغرب.

- لا أظنُّ أنهما التقيا هنا أو في أي مكان على وجه الأرض، ألم تقرأ الأبيات التي كتبها الشاعر الإنجليزي "كيبلنج": "الشرق شرق، والغرب غرب"[١].

---

(1) (Kipling) East is east / and west is west / and never the twain shall meet

نَظَرَ إليها نظرةً فاحصة، فلاحظ أنها ترتدي سلسلة فضية تنتهي بحرف الـ A وهو مؤكد الحرف الأول من اسمها، كما أنه أيضًا الحرف الذي اعتاد المتطهرون[1] في ولاية "بوسطن" الأمريكية وضعه على صدور البغايا لتمييزهم.[٢] استطردت:

- أنا "آن"، امرأة إنجليزية.
- وماذا تفعلين هنا؟
- أنا مرشدة سياحية.
- وأين المجموعة التي ترافقينها؟
- يَصِلون غدًا من إنجلترا... وأنت؟
- اسمي منصور، مصري، أستاذ جامعي، جئتُ هنا لحضور مؤتمر.

بالرغم من التعارف الفاتر قرر كلاهما تمضية بقية اليوم معًا، ربما في محاولة يائسة لتقريب الشرق من الغرب، دعته لتناول شاي الخامسة مساء معها في غرفتها بالفندق، وهناك تردد منصور غير مرة في تقبيلها، أحست "آن" برغبته، بل لاحظت التغير الذي طرأ على حجر سرواله، لكنها تركته في عذاباته قائلة:

---

(1) The Puritans.

(٢) هو الحرف الأول من كلمة Adulteress بمعنى "زانية" كما في رواية "الحرف القرمزي" لناثانيال هاوثورن.

- لا تظن أني أحتاج إلى رجل؛ لديَّ هذا القضيب المطاطي، كما لديَّ كلب "دوبر" في إنجلترا.

- أنتِ لا تعرفين قيمة ما تفقدين، هل سمعتِ عن مهرجان القضيب في بلدة "كوماكي" بوسط اليابان حيث يقدسونه كرمز للخصوبة ويصنعون نموذجًا له من شجر السرو بطول مترين ونصف؟!

- لا، لكني سمعت عن الأسطورة القادمة من بلادكم والتي تقول إن رمز الخصوبة الحقيقية إيزيس عندما بعثر ست جسد زوجها أوزوريس ظلت تجمع أشلاءه فاهتدت إلى ثلاثة عشر جزءًا، لكن الجزء الأخير وهو قضيب زوجها تبين أن سمكة قد أكلته. سمكة صغيرة ضيعت هذا الكبرياء فما كان من إيزيس إلا أن استعاضت بمجسم خشبي عن هذا الجزء، وهذا ما تفعله نساء كثيرات في هذه الدنيا، وهذا ما أفعله أنا.

صمتت "آن" لبرهة ثم تابعت وسط دهشة محدثها من جرأتها الشديدة:

- لماذا يصمم الرجل على ملء أي فراغ في جسد المرأة إلا قلبها؟ أرفض أن يتحكم الرجل بذكورته ويصول ويجول ويطبل ويزمر لفحولته ويفسر كل الأشياء حوله بمنظور "فرويد".

باتَ جليًّا أن هذه المرأة مُعقَّدة، تذكَّر منصور أن لديه تمثالًا لإيزيس في غرفته كان قد أحضره ضمن مجموعة أخرى كهدايا لمنظمي المؤتمر.

فكر في إهدائه لها، على أي حال كَرِهَ هذا التمثال، بل إيزيس نفسها بعد معرفته بقصة القضيب الخشبي، دعاها لتناول العشاء معه، ترددت قليلًا، لكنها قبلت بعد إلحاح من جانبه.

على العشاء تطرق الحديث إلى وضع المرأة وقضاياها. كان مما قالت إن الرجل يخاف المرأة ويهابها، لذا يقيدها بالحذاء الحديدي[1] حتى لا تكبر قدماها ويضع الأطواق النحاسية حول الرقبة حتى يشرأب عنقها[2] وحزام العفة[3] حتى لا تنام مع غيره وحمالة الصدر حتى لا يترجرج ثدياها فينهار أمامهما.

في المساء كان منصور كعادته يكسر غرور النصر الذي أحست به "آن" في جولتي الجسر والفندق، حان الوقت ليبصق على الإفراط في الشعور بالذات والأنا المتضخمة وبقايا النفاق "الفيكتوري" والغرور الغربي المستفز ونظرته إلى الشرق بعينين خضراوين لامرأة ربما تظنُّ أن مصر ما زالت تحت حماية "الإمبريالية" البريطانية وأن الملك ريتشارد قلب الأسد قد انطلق من جديد نحو الشرق.

---

(١) تم هذا قديمًا في الصين.

(٢) كما في ميانمار.

(٣) عبارة عن طوق من الجلد والحديد له قفل يلتف حول خصر المرأة فيغلق **الفرج** باستثناء فتحات ضيقة لقضاء الحاجة. ظهر في إيطاليا عام ١٤٠٠ واستخدم لمنع حدوث اللقاء الجنسي حيث يحتفظ الزوج بمفتاحه معه.

آن الأوان ليكسر هذا التعالي النسوي والصلف الأنثوي المتعالي لامرأة تعتقد أن الرجال ليس لهم قيمة تمامًا مثل الدبابير وذكور العنكبوت، كل هذا مقابل تمثال حقير لا يزيد ثمنه عن مائة جنيه مصري.

انفجر داخلها كنجم "سوبر نوفا". قامت "آن" من تحته بشعور مضطرب وعادت إلى الفندق لتلقي بهذا "الدلدو"[١] المزيف في المرحاض وتفرغ فوقه صندوق المياه.

أما منصور فبالرغم نشوة النصر أحس أنه يفتقد رانيا الآن أكثر من أي وقتٍ مضى.

---

(١) [illegible].

(١٥)

صار منصور يعيش في مدينة خاصـة بـه، وكانـت مدينتـه تحتـضن شوارع البغاء وميادين الدعارة في العالم بأسره القـديم منهـا والحـديث. زار بعضها بالفعل وسمع عن أخرى. كانت مدينته خليطًـا مـن شـارع الهرم بالجيزة والمتنبي بدمشق وزقاق عبد الله قش بتـونس وشـارع ٧ في أنقرة وشارع ١٤ في واشنطن العاصمة وشارع ٤٢ في نيويورك... إلخ.

لم يشبع رغبته في الانتقام من النساء، في باريس وفي أثنـاء حـضوره ورشة عمل نظمتها "اليونسكو" سَمِعَ نقرًا على الباب ففتحَ واجفًا، فإذا بفتاة من بنات الهوى تطلُّ عليه برائحة المواخير و"التوباكو".

كانت ترتدي "باروكة" خضراء وسروالًا ضيِّقا جدًّا يجسم ما بـين فخذيها، تضع في أصابع قدميها خواتم من الفضة وطـلاء أظـافر أزرق اللون! على كتفيها العاريتين وشم لفراشة، وتضع قرطًا في أنفها وشفتها السفلى.

عرفت نفسها بمنيرة "الأمازيغية". فقدت بكارتها في الصحراء فهربت من القتل إلى فرنسا بقلب كسير، كان من السهل عليها ترقيع غشاء بكارتها، فالصين لم تترك شيئًا إلا صنعته، لكن من الصعب أن ترقع جدار قلبها. تمارس منيرة الدعارة في الخفاء حتى لا يُقبض عليها وتُرحل، فالبغاء في فرنسا غير مُرخَّص به لغير الفرنسيات.

كانت منيرة قمحية، لونتها شمس شمال أفريقيا بلون الخمر، لم تكن مميزة في شيء، فقط رقم يضاف لقائمة ممتدة من بائعات الهوى تضم رحاب التي مكَّنت اليهود من دخول أريحا وكذلك النابغة و"فيفيان وارد" في فيلم "امرأة جميلة".

عرضت قبلة مجانية لمعاينة البضاعة! كانت شفتاها غليظتين فوجد منصور فمه داخل فمها ولسانه مسافرًا حتى حلقومها، ارتدت قميص نوم أبيض قصيرًا جدًّا من النوعية التي يطلقون عليها "البيبي دول". غطت وجهها بقناع قطة ثم أشعلت لفافة من التبغ وتمددت على الفراش في وضع النسر[1] ممسكة بجريدة لكسر الملل الجنسي!

اشمئز منصور قليلًا من فكرة الصحيفة، لكن ها هو يقترب من ركبتها الملساء ثم يطمس بمنيه تمامًا "كالكوركتور" كل ما هو "إنتركونتننتال" والفرنجة والفرنسة و"الفرانكفون" والتغريب وعقدة الخواجة وحرف القاف واللسان المعوج، ثم يلقي لها النقود باشمئزاز.

---

(1) Spread-eagle.

بعد أن صرفها أطل منصور من نافذة غرفته بالفندق فوجد في الحديقة شابًّا يقبل فتاة شقراء ويعانقها ويشتمها ويلعق رقبتها العاجية ويقبل صدرها الوافر، تبادلا قبلا محمومةً، للرغبة مخالب وأسنان، ما هذه الحمم التي تتطاير حولهما؟! أخذ الشاب في تمرير لسانه على حاجبي الفتاة وراح يلثم أنفها بفمه، تناوب كلاهما وضع رأسه على كتف الآخر. كانا في غياب تام عن الوعي وعما يجري حولهما، أطلق منصور زفرة من الحسرة وهو يقول: "ما أروعهما!"

(١٦)

كانت آخر تجارب منصور مـع البـصق في سـيناء حـين ذهـب مـع طلابه في رحلة إلى شرم الشيخ. وهناك تعرف إلى "تمارا".

لا بد أن "تمالرا" هي الفتاة المقصودة بهذه الكلـمات في الإصـحاح السابع من نشيد الإنشاد: "ما أجمل رجليك بالنعلين.. دوائـر فخـذيك مثل الحلي.. سرتك كأس مـدورة.. عنقـك كـبرج مـن عـاج.. قامتـك شبيهة بالنخلة وثدياك بالعناقيد. قلـت إني أصـعد إلى النخلـة وأمـسك بعذوقها."

كانت فتاة جميلة وجذابة، لكنهـا متعـصبة للدولـة العبريـة وفكـرة الشعب المختار والأرض الموعودة. باختصار كانـت "تمـارا" صـهيونية من الطراز الأول. لم تأتِ إلى مصر للسياحة أو ما شابَهَ بل لتؤلِّـف كتابًـا عن الآثار اليهودية في مـصر بـدءًا بــ "الجيتوهـات" وحـارات اليهـود

مرورًا بالمعابد وحتى مولد "أبي حصيرة".[1]

ذهبا معًا للسباحة في خليج نعمة، حين رآها بملابس البحر أدرك أن اشتهائه لها قد فاض فملأ الكروم والزروع وأنه لم يعد بمقدوره أن ينأى عنها، تذكَّر "لويزا" وهي تسبح شبه عارية في بحيرة طبرية في فيلم "الناصر صلاح الدين" وتذكر السهم الذي أصاب "عيسى العوام"، قالت له: "هذا درس لك يا عربي."

في المساء قصدت غرفته ومعها زجاجة "فودكا" أفرغتها مع حبوب منع الحمل في جوفها. خلع عنها ملابسها فشم رائحة العهر بين فخذيها، لم تفق من السكر، لكن ذلك لم يمنع منصور من البصق فيها بكل ما أوتي من عزمٍ.

بصق على عجرفتها وغطرستها، وبصق على "بروتوكولات" صهيون والاحتلال والاستيطان والتطبيع والتهويد ووعد "بلفور" و"الفيتو" الأمريكي.

بعد يومين من عودة "تمارا" إلى "تل أبيب" سمع عن فتاة إسرائيلية مصابة بالإيدز قُبض عليها في أحد المطاعم بجنوب سيناء

---

(١) هو يعقوب بن مسعود (١٨٠٥-١٨٨٠)، **حاخام يهودي** من أصل مغربي هاجر إلى مصر ودول أخرى. يعتقد عدد من اليهود أنه جاء إلى مصر على حصيرة تتهادى على الماء، وأنه شخصية "مباركة" ويزعمون أن له مقامًا في قرية "دميتوه" بمحافظة البحيرة.

وهي تستخدم خلات الأسنان على المائدة ثم تعيدها مكانها، تبيَّن أنها فعلت ذلك في عشرات المطاعم ومئات الموائد.

كاد منصور يموت قلقًا، رأى نفسه "روك هيدسون" في آخر أيامه لحمًا على عظم، ناهيك عن الفضيحة، ماذا حدث له؟! نشأ في بيت لمخافة الله فيه نصيب، لم يذق طعم النوم لأيام حتى شاهد صورة الفتاة منشورة في إحدى الصحف وتيقن أنها ليست "تمارا".

تنفسَ الصعداء، نجاه الله إلى البرِّ فقرَّر أن يعود لسيرته الأولى مُتعلِّلًا بأنه كُتب على كل فرج نصيبه من الزنا، لكنه عاد فقرر أن يتوقف عما يفعله، تغيرت حياته بالكلية بسبب هذه الحادثة التي كاد يفقد حياته بسببها.

حلم تلك الليلة برانيا، لم تكن سعيدة في الحلم، استنتج أنها غاضبة منه، طلبت منه أن يتوقف عن البصق، لا بأس فقط لو تعود إليه، قالت له باستغراب: "أعود! من قال إني رحلتُ؟! أنا رانيا، الحاضرة الغائبة. أنا رانيا المتشعبة؛ مثل القطة أمتلكُ تسع أرواح."

(١٧)

مَن يحبُّ بحقٍّ يحب للأبد، نزفه لا يتوقف.

أنـا القـارئ، القـارئ التجريبـي للروايـة. هـذه وظيفـة جديـدة استحدثتها دار النـشر تمامًـا مثـل وظيفـة الذواقـة في المطـاعم الكـبرى بالخارج، هذه المرة ستتجاوز وظيفتي التذوق إلى ترك بـصمة في العمـل حيث ترك المؤلف بالاتفاق مع الناشر هذه الصفحات التالية في الروايـة بيضاء لأقوم أنا بملئها! لا بأس. سأحاول.

من الصعب أن تـشعر أن وجـودك وفقـدك وحـضورك وغيابـك وحياتـك ومرضـك وجوعـك وشـبعك وابتـسامك وحزنـك وألمـك وفرحك وجرحك ونـصرك لا يفـرق كثـيرًا عنـد الآخـرين! أن تفعـل المستحيل ولا تنال الممكن، ما أقسى أن تعيش لا يهتم بك أحد ثم تموت فلا يبكي عليك أحد! ألا تجـد مـن يـشاطرك الحلـم! أن تلـتهم الأيـام براءتك!

ما أصعب أن تكون حياتك متوالية من الألم! أن يُخيِّم على قلبك كسوف كامل، خطوة للأمام وخطوتين للخلف، ساعة رملية تزيد وتنقص في نفس الحيز، بندول، ماكينة أسى تعمل بالنشوء الذاتي، حياة بنكهة الوجع، إخصاء وإقصاء.

ننام كل يوم على أمل أن نجد الفرحة، ثم نفتح عيوننا على نفس الأثاث ونفس المتاع ونفس الأشياء. أيام محبطة وحياة زائفة.

لماذا لا نحصل على ما نريد؟! لماذا لا يمكننا أن نستعيد لحظة واحدة من الماضي حتى لو كانت اللحظة السابقة مباشرة؟! لماذا نؤجل أحلامنا أو نتنازل عنها؟! لماذا نحلم بالفرح وننال الدموع؟! لماذا كل هذا البكاء في حياتنا؟! لماذا نتألم ونتعذب ونتوجع ثم نموت وتموت معنا أفكارنا وعلومنا ولغاتنا؟!

نستيقظ كل يوم من النوم ونسأل أنفسنا: أين نحن؟! وهل نحن على قيد الحياة؟! وهل هذه هي الحياة؟! لماذا تُسمى حياة وتنتهي بالموت؟! وهل نحن موجودون فعلًا أم أن حياتنا لا تعدو أن تكون "فوتوشوب"؟! وإلى متى سنظل هنا؟! وكيف سيكون الوضع هناك؟! ومتى يكون رحيلنا؟! ما آخر كلمة سننطق بها؟ ما آخر شخص سنراه؟ ما آخر طعام سنتناوله؟ وهل يجب أن نذهب؟!

لماذا لا يأتي هذا الغد الذي يقولون عنه إنه أفضل؟! لماذا يأتي غد خالي الوفاض فنضطر إلى أن ننتظر غدًا غيره؟! نمضي كالحملان في

طريق مرسوم ونسأل في خجل مع القطيع: "كم غدًا تبقى لنا في هذه الحياة؟!"

بعض الناس يعيشون، لكنهم لا يحيون، "مُنعم في عذاب، معذب في نعيم" على حد قول "ابن عربي"، يضعون المبتدأ وينتظرون الخبر، ويطول انتظارهم، يفتحون قوسًا ثم تفشل الكلمات في غلقه، بعض الناس هم المستثنى بإلا وغير وسوى وخلا وعدا؛ بعض الناس هم المستثنون من الفرح.

دائمًا ما يكون هناك شيء ناقص في حياتنا: أب لفه الردى، أم غائبة، صديق غير موجود، حبيب ضاع في الطريق، تذهب الأشياء ويرحل الأشخاص ولا يبقى لك إلا نفسك، ابكِ على نفسك، لا يستحقك إلا نفسك.

وهكذا أضحت حياة منصور، قلبه مُتخم بالحزن، عيناه تفيضان بالدموع دومًا، ذاكرته مثخنة بالجراح، شعر كفرخ طير سقط من العش، أو كترسة وليدة تشق طريقها نحو البحر بينما تترصد بها المفترسات على اختلافها.

كالعادة لا جديد، الأرض تتقيأ الأشياء ثم تعود فتبلعها.[1] حزن دائم وفرح غائب وقلب مفجوع، صقيع القلب أشد من صقيع القطب، تمضي حياته بالإيقاع البطيء كفيلم صامت دون موسيقى تصويرية.

---

(١) العبارة لمخائيل نعيمة.

ربما لم يكن راضيًا عن أطوار كثيرة من حياته؛ ربما ما زال في حلقه غصة وفي قلبه شيء، لكنه الآن أكثر تقبُّلًا وأقل حنَقًا وغيظًا، الزمن ليس خصمًا ولا تستطيع أن تنازله، وإن صارعته صرعك.

حان الوقت لكي يهدم أقبية الشك والخوف، حان الوقت لكي يتسامح مع نفسه وأيامه وتجاربه وذكرياته، نتألم لنتعلم ونحترق لننضج.

ساعدته رانيا على النهوض، في لحظة حاسمة من عمره قرر ألا ينظر إلى الخلف، قضى الله بهلاك "سدوم وعمورية" فحذرت الملائكة لوطًا وأهله من النظر إلى الوراء في أثناء خروجهم من القرية، امتثل الجميع إلا امرأة لوط التي تحوَّلت في الحال إلى عمود من الملح، لو كان في الخلف خير لخلق الله لنا عينًا في الأمام وعينًا في الخلف.

لا بأس.. تُنكأ الجراح لتُضمد، شجرة الموز لا تطرح إلا عندما تُقطع، وفراشات النور لا تضع بيضها إلا عندما تُلسع.

من قال إن مسيرة إنسان يمكن أن تنتهي بحظٍّ عاثر أو حادث أليم؟ من قال إن اليأس الأسود يمكنه أن يزيح الأمل الذي تضخه الحياة في عروقنا صباح كل يوم؟! إذا كانت العظام تُجبر وتلتئم فإننا أيضا قادرون على أن نبرأ من جراحنا وآلامنا.

صحيح أن هناك أشياء تشدُّنا للخلف وتمنعنا من الانطلاق للأمام وتحقيق ما ننشده، أشياء مثل العادات والتقاليد واعتبارات شخصية وظروف أسرية، وصحيح أن لكل إنسان قائمة بهذه الأشياء التي تقيده، لكن التغلب عليها ليس مستحيلًا.

تُعرف هذه الحالة بمتلازمة دلـو "الـسلطعون"[1] فعنـدما توضـع واحدة منها في دلو تستطيع الهرب، أما في حالة وجود العديد منهـا فـإن الآخرين لا يسمحون للهارب بأن يحقق مبتغـاه، بـل يجذبونـه للأسـفل ليواجه المصير نفسه معهم.

بقدر القوة التـي تنطلـق بهـا للأمـام هنـاك قـوى مـساوية تـشدُّك للخلف، في بعض الأحيان نُضطر لأخذ خطوتين للخلف لننطلق بقـوة إلى الأمام وقديما قالوا: "لن ينطلق السهم بقوة للأمام ما لم تُمعن في شـدِّ وتر القوس بقوة للخلف".

(1) Crab Bucket Syndrome.

(١٨)

كان مما ساهَمَ أيضًا في التغير الذي طرأ على منصور كتاب قديم مستعمل التقطه قَدَرًا من شارع "النبي دانيال". يتحدث الكتاب عن الحب الحقيقي، وعن خطورة ألا نفتح قلوبنا له حين يأتي.

من المحزن أن بعض الناس تدفعهم الخيبة ومرارة التجارب لينظروا إلى القلب كمضخة لدفع الدماء وحسب، يتصدر الكتاب قول إيليا أبو ماضي: إن نفسا لم يشرق الحب فيها هي نفس لم تدر ما معناها.

يُعرِّج الكتاب على فكرة القسمة والنصيب، ويوضح أن نصيبك قد يكون في "أوتاوا" أو "مانجوا" أو "تيرانا" أو "صوفيا" أو طنطا أو العمارة التي أمامك، تذكَّر أن نصيبك يبحث عنك كما تبحث عنه.

الإنسان، رجلًا كان أم امرأة، في بحث مستمرٍّ عن شقيق النفس، قد تجده مصادفةً، وقد تظل تبحث عنه سنوات، قد يكون في آخر العالم وقد يكون في الشارع الذي وراءك، الشيء المؤكَّد أن دربه سوف يتقاطع

مع دربك في نقطة واحدة في يوم من الأيام، وهنا قد يحدث اللقاء الـذي ليس بعده فراق وقد يكون الفراق الذي ليس بعده لقاء.

ولأن نسبة كبيرة من بني البـشر لا تجـد هـذا الحبيـب المجهـول في العـالم المـادي فـإنهم يـسعون للبحـث عنـه في العـالم الافـتراضي بكـل مستوياته. القصة لم تتغير والبحـث لم يتوقـف، لكـن الوسـيلة تتفـاوت وتتباين.

بعض الناس يرسل صورته وبياناته إلى الـصحف والمجـلات فـيما يعرف بـ "أريد عريـسًا، أريـد عروسًـا." بعـض النـاس يكتـب اسـمه وهاتفه على النقود الورقية وعلى الأحجار والأشجار ومقاعـد الدراسـة وحوائط دورات المياه. صحيح أن هـذا سـلوك خطـأ، لكنـه يعـبر عـن الرغبة في دخول هذا العالم الافتراضي والعثور على النصف الآخر.

عام ١٨٨٠ كتبت "إيـلا شـيفر ثـاير" قـصة "الحـب عـبر أعمـدة البرق".[١] تدور أحداث القصة حول "ناتي" و "كليّم" اللذين يعملان في مكتبي برق يبعد كلاهما عن الآخر حـوالي خمـسين ميـلًا، أقامـا عـن طريق أجهزة التلغراف وشفرة "مورس" علاقة غرامية توجت بالزواج بعد العديد من المنغصات.

عام ١٩٣٧ كتب "ميكلوس لازلو"، وهو كاتب مجري مسرحية[٢] تحولـت عـام ١٩٤٠ إلى فـيلم سـينمائي بعنـوان "المتجـر الـصغير عنـد

(1) Ella Cheever Thayer, Wired Love.
(2) Miklos Laszlo, Parfumerie.

الزاوية".[١] تدور أحداث القصة في متجر بـ "بودابست" حيث يتبادل عامل وعاملة الشعور بالكره بينما يتراسلان ويقعان في الحب دون معرفة كلاهما بالآخر.

في عام ١٩٥٦ ألقى بحار سويدي يُدعى "آكي"[٢] برسالة زجاجية في عرض البحر، كانت الرسالة إلى فتاة مجهولة تنتهي بعنوانه، وجد صياد من جزيرة صقلية الرسالة وسلمها لابنته "باولينا"[٣] التي كتبت بدورها إلى "آكي". سافر الشاب السويدي إلى صقلية وقابل الفتاة فراقت له وانتهى اللقاء بزواجهما عام ١٩٥٨!

في عام ١٩٤٣ بدأ "فيكتور أندرسون" من إنجلترا في مراسلة "ماريانا" من تل أبيب، عام ١٩٥٥ وبعد اثني عشر عامًا من المراسلة تزوجا واحتفلا عام ٢٠٠٧ بعيد زواجهما الثاني والخمسين.[٤]

اليوم ومع "الإنترنت" لا يهم إن كان توأم روحك في "سيبريا" أو "طوكيو" أو "سان ديجو" أو القاهرة، تستطيع أن تصل له بضغطة على زر واحد بفضل الفضاء "الإلكتروني" الذي يلتقي فيه الغرباء من شتى أرجاء المعمورة.

في عام ٢٠١١ ظهرت النسخة الإنجليزية لرواية "الحب الافتراضي" لـ "دانيل جلاتور".[٥] تدور الرواية عام ٢٠٠٦ في النمسا

---

(1) The Shop around the Corner.

(2) Ake.

(3) Paolina.

(4) thestory.org/archive/...story...Pen_Pal...Story.../view

(5) Daniel Glattauer.

حين يصل "ليو" عن طريق الخطأ بريد إلكتروني من امرأة تُدعى "إيمي" وسرعان ما يتبادلان المحادثات والأسرار في هذا العالم الرقمي، من أمتع الكلمات في هذه الرواية ما كتبه ليو: "اكتبي لي يا إيمي. الكتابة مثل القُبل، لكن بدون شفاه." الحب يلغي المسافات، والمعجزات تحدث، ومَن يبحث يَجِد.

أغلق منصور الكتاب وقد انتشى بما جاء فيه، ثم قال: "سأبحث عنك يا رانيا. فقط أريد إشارة، علامة، طرف الخيط." في تلك الليلة رأى منصور في المنام أنه يمسك خيطًا ويحاول سحبه، بينما أمسكت فتاة لا يذكر منها سوى عينيها الجميلتين بالطرف الآخر.

حين وصل الكلية في صباح اليوم التالي قصد سكرتيرة القسم، "مدام جانيت"، وقصَّ عليها الحلم. كانت "جانيت" قبطية صالحة، تتفانى في عملها الذي أوشكت أن تُحال فيه إلى المعاش، أكسبتها سنوات العمل صداقة أعضاء هيئة التدريس واحترامهم. كانت لا تحلف ولا تكذب. قلبها مُعلَّق بالعذراء، إليك الورد يا مريم.

كانت "جانيت" متيمة بالغيبيات والروحانيات فبالإضافة إلى شغفها بتفسير الأحلام كانت تقرأ الأفكار والكفَّ وخطوطها: خط الحياة وخط الشهرة وخط الزواج وخط الصحة وخط المال وخط السفر، صحيح حياتنا كلها خطوط ومحطات.

كان لها اهتمام شديد بالأرقام ودلالاتها وألغازها والأشياء التي تجلب الحظ أو تدعو إلى التشاؤم والمصادفات وتوارد الخواطر والتبصير

والنبوءات وقراءة الطالع. كانت تنتبه لأشياء قد تمر على الكثيرين دون أن يعيروها اهتمامًا، وترى أن شفرات الغموض موجودة أمامنا، لكن هناك مَن يمسك بتلابيبها وهناك من لا يلتفت لها. اعتقدت "جانيت" أن الربَّ يرسل لنا إشارات وومضات نورانية، فمنا من يستغل لحظات التنوير تلك فيجد ضالته وما ينشده ومنا من يفوت الفرصة تلو الفرصة حتى يصبح عاجزا عن رؤية هذه التجليات.

فتحت "جانيت" درج المكتب وأخرجت كتيبًا من وضعها مزجت فيه بين تفسيرات ابن سيرين ورؤى "يوحنا" وتحليلات "فرويد" وأساطير العالم القديم، قصَّ منصور عليها الحلم، بدأت بالبحث، لم يستغرق الوقت طويلًا لأنها رتبت كتابها أبجديًّا.

بدأت في القراءة: "الخيط دليل وبينة وخيط العنكبوت وهن، الخيط المعقود زواج والخيوط المعقودة سحر وخيوط الشمس نور وهداية، لضم الخيط في الإبرة أمر صعب أو مؤامرة والحياكة بها شفاء أو مواقعة جنسية، الخيط الأبيض الفجر والأسود الليل والأحمر شغف وإحساس ورغبة وحب، وفي الأساطير الصينية خيط القدر وهو خيط أحمر يربط بين الرجل والمرأة اللذين قُدِّر لهما اللقاء.. انتهى."

خيط أحمر خفي، يربط أولئك الذين قُدِّر لهم اللقاء، بغض النظر عن الوقت أو المكان أو الظروف، الخيط قد يطول ويتشابك، لكنه أبدًا لن ينقطع.

(١٩)

وضع منصور همه في أبحاثه وتخصص اللغويات التاريخية التي يعشقها. كانت له عقلية فذة لا ترضى بالإجابات الجاهزة، وكان متيمًا بالكلمات ولديه مشروعات علمية طموحة.

تمنَّى منصور لو أنه أُوتي جوامع الكلم، تمنَّى لو عُلِّمَ منطق الطير كالملك سليمان، تمنَّى لو حاز فصوص اللغة في مخ حنين بن إسحاق ورفاعة الطهطاوي والعقاد وسيبويه والرافعي والمنفلوطي و"سوسير" و"تشومسكي" وفاروق شوشة وشوقي ضيف وشكسبير وموليير و"بوشكن" وابراهيم أنيس ومحمد عناني.

تمنَّى لو حفظ معجم "العين" و"المنجد" و"وبستر" و"لاروس" و"شريجلا"، تمنَّى لو استطاع العلماء والأطباء زرع رقائق "إلكترونية" في مركز اللغة بمخِّه تُمكِّنه من الترجمة الفورية دون وسيط خارجي لأي لغة، تمنَّى لو استطاع فك رموز اللغات المنطوقة وإعادة اللغات

المنقرضة للوجود، تمنَّى لو وحد بين العائلات اللغوية وخلق لغة جديدة يتحدث بها كل البشر، تمنَّى لو أنجز معجمًا ضخمًا يُدوِّن فيه أصول الكلمات.

تمنِّى كثيرًا، لكن كم من السنوات يحتاج ليُنهي هذه المهام ويحقق هذه الأحلام؟! هل يجد الوقت؟ وهل تسعفه الأيام؟ أتدري ما المشكلة؟ المشكلة أننا نعيش حياة مشروطة بالموت، المشكلة أننا نعيش حياة لا نعرف كيف بدأت ولا نعرف متى تنتهي! المشكلة أننا ننام كل يوم ملتاعين ومرعوبين ألا نفتح عيوننا مرة أخرى.

هل وكيف ولماذا ولم؟ يا عذابات مَن يبحث عن الحقيقة فلا يجدها! يشقى بعقله صاحب الفكر والرأي وينشد الإجابة فلا يجدها، هذا حال من يملك عقلًا مُؤرَّقًا لا يريد أن يعطله أو يجعل التراب والصدأ يتراكم عليه، ما أقسى الوجع الذي تسببه هذه الكلمات البسيطة لرجل قرر ألا يحمل فوق كتفيه ورقبته جرة، صدقَ من قال: "من يَزدَدْ عِلمًا يَزدَدْ حُزنًا".

يقرأ منصور ويتأمل ويسرح حتى الشتات في أمور لها علاقة باللغة والتاريخ والدين والحياة. من الصعب أن تُقنع رجلًا في عقلية الدكتور منصور بأنه لا توجد إجابات لأسئلته، من الصعب أن تعطيه ردودًا مطاطية مثل "أمر الله"، و"البيضة والدجاجة" و"هذا سؤال جدلي" و"هذا السؤال ليس له إجابة" و"لا تسألوا عن أشياء.." و"انظر كيف أورد الجدال إبليس مورد التهلكة".

إليك بعضًا من الأسئلة التي قضَّت مضجعه: أي لغة تكلم بها آدم في الجنة؟ وما الأسماء التي تعلَّمها؟ هل اللغة مِن صُنع الله أم من صنع البشر؟ كيف نتحدث عن زنى المحارم والإنسان أصله واحد؟ ما الذي اقترفه ابن السفاح رغم أنه ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾؟ هل يملك الإنسان الإرادة حقًّا أم أنه "يفر من قدر الله إلى قدر الله"؟ هل يُعقل أن تعاقب البشرية كلها بجرم قوم نوح؟ لماذا لم يُسلم بحيرا الراهب بعد أن تيقَّن من نبوة الرسول؟ لماذا وقفت الكنيسة ضد أطروحات العِلم ونظرياته فقتلت وحرقت وسجنت وعذبت من العلماء الكثير مثل "كوبرنيكوس" و"جيوردانو برونو" و"جاليليو"...إلخ؟ هل فعلًا أحرق عمرو بن العاص مكتبة الإسكندرية؟ ما حكم العشرة آلاف مسلم الذين قضوا في موقعة الجمل؟ لماذا واصل معاوية القتال بعد قتل عمار بن ياسر ومعلوم أن الرسول قال له: "تقتلك الفئة الباغية"؟ لماذا كُفر ابن رشد وابن النفيس وابن سينا وابن عربي وأبو بكر الرازي وجابر بن حيان والخوارزمي وأبو العلاء المعري والإمام الطبري والحلاج وغيرهم؟ لماذا قُتل عبد الله بن المقفع والسهروردي وأحمد بن نصر الخزاعي؟ ثم ما هذه الطرق البشعة في القتل والتعذيب التي تزخر بها كتب المؤرخين من تقطيع الأوصال وعصر الخصيتين حتى الموت وفقع العيون وبقر البطون وحرق الناس أو دفنهم أحياء وقلع الأظفار وسل الألسن؟! ما كل هذه الدماء؟ تاريخ كله محنة و"أيام كلها كربلاء"[١].

---

(١) من قصيدة "قتلناك يا آخر الأنبياء" لنزار قباني.

(٢٠)

أنا الراوي من جديد.

في اليـوم التـالي لمـؤتمر مكتبـة الإسـكندرية عـن نظريـة الانفـلاق اللغوي، استيقظ منصور من نومه كعادته في الخامسة والنصف صباحًا، أفرغ القمامة وغسل المواعين ثـم أدار شريـط فـيروز وجلـس يكتـب في صمت لا يقطعه سوى أنين الثلاجة.

ارتفعت شمس واهنة مُرسِلةً أشعتها الذهبية لتوقظ السحب التـي احتبست الدموع في مآقيها، اندفع بحر الإسكندرية بـين مَـدٍّ وجـزر في قلوب ساكنيها حاملًا الدماء النقية إلى شرايينهم. انتشرت رائحـة اليـود وانكـسرت الأمـواج عـلى شـواطئ تتمـدد وتـنكمش بفعـل الـسنين، خرجت الشِّباكُ مُتخمةً بأسماك فضية راحت ترقص وتتلوى من الألم.

انطلق البشر في الأزقة والحـواري والطرقـات، أنـاس متبـاينون في أرديتهم ومشاربهم وأصولهم ومعتقـداتهم، لكـل مـنهم قـصته؛ ولكـل منهم سره ووجعه وبكائيته.

فتح منصور النافذة فوجد كالعادة حشدًا من البشر يسيرون مثل النمل في كل اتجاه، تذكَّر كما يفعل كل صباح قول الشاعر:

إني لأفتح عيني حين أفتحها   على كثير ولكن لا أرى أحدًا(١)

هذا الزحام لا أحد.(٢)

في السابعة والنصف وقف منصور شاخصًا إلى المرآة لأكثر من دقيقة، لكن لم يجد انعكاس صورته، حدَّث نفسه: "يبدو أن مرآتي سريالية أو أن صورتي كالنيجاتيف تحتاج إلى وقت ومواد كيماوية وربما عوامل وسيطة كي يظهر انطباعها في الوجود."

لشد ما يكره أن يكون كَمًّا مُهمَلًا، صفرًا على الشمال، على الهامش، كتلة هلامية، مبنيًّا للمجهول، نكرة، إمعة، خيال مآتة، لا شيء. ارتدى نظارته ومسح المرآة التالفة فظهرت ملامح وجهه، أخذ يحلق ذقنه، ثم أفاق من شروده على رنين هاتفه المحمول.

سأل نفسه: ماذا يريد رئيس القسم في هذه الساعة المبكرة من الصباح؟! هَمَّ بالرد. جاءه صوت الدكتور عدلي قائلًا:

- صباح الخير.
- صباح النور يا دكتور.

---

(١) البيت لدعبل الخزاعي.

(٢) المقولة لأحمد عبد المعطي حجازي.

- أريدك أن تتوجه إلى رشيد.

تجمَّدت الكلمات في فمه، رشيد! سرح قليلًا. جاءه صوت الدكتور عدلي:

- منصور! منصور! أأنت معي؟! أين ذهبت؟!

- معك.. معك. قلت رشيد. تريدني أن أذهب إلى رشيد. خير يا دكتور؟!

- النيابة هناك أرسلت في انتداب خبير في اللغات من جامعة الإسكندرية، ووقع الاختيار عليك.

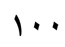
- وما طبيعة المهمة يا دكتور؟!

- لا أعلم. لا توجد تفاصيل، لكنني أرسلتُ لك على بريدك الإليكتروني صورة الخطاب الوارد من رشيد وآخر يفيد بانتدابك لهذه المهمة. اطبع الخطابين قبل الانطلاق.

- هل آخذ معي أي شيء آخر؟ قواميس مثلًا؟

- لا أظنُّ أن الأمر متعلق بالترجمة. كن على اتصال معي. يمكننا تسهيل مهمتك من هنا.

- حسن يا دكتور.


١٠٠

(٢١)

في الطريق إلى رشيد بسيارته شَقَّ منصور الدلتا شرقًا، من ينظر إلى الدلتا على الخريطة يدرك أنها مفتاح الحياة، رحم مصر وماعونها وكأسها التي لا تنضب، تكوَّنت هذه الأرض السمراء من الرواسب التي حملها النيل عبر آلاف الأميال والسنين، الدلتا هي قلب مصر ورئتيها. كان للنيل ما يقرب من عشرة شرايين تصلب منها ثمانية وبقي اثنان يضخان الدماء النقية إلى الشمال.

أدار منصور المذياع ليتسلى قليلًا، كانت إحدى القنوات تبثُّ برنامجًا تحت عنوان "أوادم"، وكانت الحلقة عن توأم الروح وهذه الأشياء. تعجب منصور من هذه المصادفة! جاء صوت المذيع قائلًا:

- يقول ابن حزم الأندلسي في كتابه "طوق الحمامة": "وقد اختلف الناس في ماهية الحب وقالوا وأطالوا، والذي أذهبُ إليه أنه اتصال بين أجزاء النفوس المقسومة في هذه الخليقة.. وقد علمنا أن

التمازج والتباين إنما هو الاتصال والانفصال والشكل دأبًا يستدعي شكله والمثل إلى مثله ساكن.. ونفس المحب متخلصة عالمة بمكان ما كان يشركها في المجاورة طالبة له قاصدة إليه باحثة عنه مشتهية لملاقاته جاذبة له لو أمكنها كالمغنطيس والحديد.. وكلما كثرت الأشباه زادت المجانسة وتأكدت المودة فانظر هذا تراه عيانًا وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤكده: الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تنافَرَ منها اختلف."[١] بعد هذه السطور اسمحوا أن أتوجه لضيفنا الدكتور "بهاء عبد العزيز" بهذا السؤال:

- دكتور.. هل الحب الحقيقي موجود؟

- بلا شك.

- وهل لا بد أن نبحث عنه؟ أليس من الغريب أن يجد الناس شقائقهم في الماضي بحذاء من الزجاج أو الجلد الأحمر أو خاتم أو ندبة أو شامة أو وحمة في الجسم أو خلافه بينما يضل أبناء هذا العصر الطريق في زمن "الإنترنت" والمحمول ونظام التوقيع الأرضي؟!

- مصائر الناس تتقاطع كالطرق، لكن البحث أمر مهم. حين تهبط كبسولة فضائية تنزل في نقطة محددة والمظليون ينزلون في بقعة قريبة، لكن حين أهبطَ الله آدم وحواء فرَّق بينهما ليظلا في بحث متصل. خلق الله حواء من ضلع آدم؛ لذا تشتاق إليه، وأما آدم فيحن لهذا الضلع

(١) طوق الحمامة، دمشق، مكتبة عرفه، بدون تاريخ، ص ٥-٨.

الذي أُخذ منه. كل منا يبحث عن امرأة في خاطره، لكنه لا يعرف أين يجدها ومتى يجدها وهل يجدها أم لا؟ بعض الرجال في عالمنا يكتفي بالانتظار. وأنا أقول البحث مهم وقد لا يحتاج إلى خطة، فقط مصادفة سعيدة. فقط كن مستعدًّا، فقط لا تضيع الفرصة حين تأتي، فقط استمع إلى صوتك وحرِّر نفسك وعقلك حتى لا تقع في الشَّرَك.

- أي شرك؟

- أن تنخدع لشريكة ليست لك ولا تناسب فكرك وطموحاتك.

- كيف؟!

نطقها منصور والمذيع في نفسٍ واحد، تابَعَ الضيف:

- قد تقابل إنسانة تشعر أنك عرفتها العمر برمته وقد تعاشر إنسانة تحت سقف واحد سنوات وسنوات ولا تعرفها حق المعرفة.

- وكيف يهتدي الشخص إلى توأم روحه؟

- لا توجد وصفة معينة، هي فقط إنسانة لا تحتاج منك استفاضة في الكلام، نظرة واحدة من عينيها لعينيك تصلها رسالة قلبك. ستقول لك: أفهمك، لا داعي للشرح، وصلت فكرتك. إنسانة يحدث بينكما نوع من التوحُّد فطالما هي حية تظل أنت حيًّا فيها.

- وماذا عن الأشخاص الانتقائيين الذين يرسمون صورة محددة لشريكة المستقبل؟

- حين نضع شروطًا لانتقاء شريكة العمر مثل كونها جذابة أو غنية أو ذكية أو لديها وظيفة تدرُّ عليها مبلغًا طائلًا أو خلافه، كل هذه الأشياء تفسد اختياراتك، الحب لا يعرف الشروط، ثم عليك أن تتروى ولا تتعجل، واعلم أنه لا يوجد رجل كامل ولا امرأة كاملة.

وعند هذا الحد اختتم المذيع الحلقة بمقولة "إميلي بروتي" في روايتها الشهيرة "مرتفعات ويذرنج": "هو يشبهني أكثر مني، فبأي شيء تتشكل الأرواح والأنفس، نظل أنا وهو الشيء ذاته."

أما منصور فقد راح يردد مع "توم كروز" في فيلم "جيري ماجواير":[1] "أنت تكملينني".

---

(1) Tom Cruise – Jerry Maguire.

(٢٢)

في سفره نحو بلد المليون نخلـة مـر منـصور بقـرى بائـسة لا تقـع عيناك في أي بقعة فيها إلا على قـبح تنقـبض منـه النفـوس وتـضيق بـه الصدور: رجال ينتعلون الكسل والبلادة وبرودة الأعصاب. سـونامي من المطبات الصناعية الغبية، نساء يجلسن في قارعة الطريق بـلا سـبب، بيوت مبنية بالطوب الأحمر تتحدى الأشكال الهندسية التي تعلمناهـا في المدرسة فلا هي مستطيلة ولا مربعـة ولا حتـى شـبه منحرفـة! عمـدان خرسانية تقف عارية في الهواء تنتظر تحويلات الأبناء الـذين سـافروا إلى الخليج؛ حارات متعرجة تكثر بها الحفر والمنحنيات ويختلط ثراها ببقايـا الطعام وأحشاء الـدجاج وأوراق الكرنـب وميـاه الاسـتحمام، أعمـدة كهرباء خرجت أحشاؤها ويصدر عنها أزيز يُغـري الـصبية بـالاقتراب منها، ثم ما يلبثون أن يعلقوا بها كالبعوض الذي يغريه ضوء الـصاعق، ثم ما إن يقـترب منـه حتـى ينفجـر وتجـف دمـاؤه؛ أكـوام مـن الـسماد والقــذارة والــروث والقمامــة والحــشائش والمخلفــات تــسد الــترع

و"الرشاحات"؛ أسراب من الذباب والبعوض والفئران والكلاب الضالة؛ رائحة النوم والروث و"اليوريا" والدخان والغبار ونزح "الطرنشات" وزيت "الفلافل" المحروق تملأ الهواء وتحرق الأنوف.

بالرغم من ذلك سره رؤية عيدان البرسيم وهي تتمايل بفعل رياح الشتاء الباردة وكأنها أمواج البحر البعيد، بعد ساعة ونصف من القيادة وصل الدكتور منصور إلى رشيد، توجَّه مباشرة إلى قسم شرطة رشيد، وهناك قيل له إن "مختار بيه"، وكيل النيابة، خرج لمعاينة وسيعود بعد الظهر،

قرر منصور تمضية الوقت في زيارة معالم رشيد، فقصد منزل "زبيدة الميزوني" ثم قلعة "جوليان" كما أسماها جنود الحملة الفرنسية، هنا عثر الضابط الفرنسي "بوشار" على حجر رشيد، من حسن حظ الحجر أن وجده الفرنسيون، ولو وجده المصريون لكان الآن يُستخدم كعتبة في ميضة أحد المساجد أو دار من الدور عوضًا عن مكانه المهيب في المتحف البريطاني.

ارتفع آذان الظهر فتوجَّه للصلاة في جامع "العباسي"، بعد الصلاة ناشَدَ الإمام المصلين بالجلوس والاستماع لدرس مدته ربع ساعة، وكانت مدة كافية حقًّا ليكفر الشيخ البشر قاطبة!

لا يختلف هذا الشيخ كثيرًا عن فرسان المعبد و"الكو كلكس كلان"[١] وجماعة التكفير والهجرة وحركة "كاخ"[٢] و"بوكو

---

(١) نشأت في الولايات المتحدة Ku Klux Klan.

(٢) نشأت في إسرائيل.

حرام"[1].. أولئك الذين أغلقوا عقـولهم ثـم رمـوا بالمفتـاح في النهـر، أولئك الذين ذبحوا الفن والجمال والإبداع بمُدَى الانغـلاق والتخلـف ونصال الولاء والبراء والكهنوت. عقليات تحتاج إلى ترميم.

حـين لم يجـد الـشيخ شـيئًا يُكفِّـره أو يجعلـه حطـب جهـنم عـرَّج بالحديث على عذاب القـبر والثعبـان الأقـرع وأسـياخ الحديـد الملتهبـة وتهشيم الرؤوس بالصخور وسلخ الجلود!

لا يعرف عن الله سبحانه إلا أنه "شديد العقاب" وينسى أنه أيـضًا "غفور رحيم"، ألا يكفي أيها الشيخ ما يواجه الإنسان هذه الأيـام مـن ضياع وألم ويأس وحسرة وإحبـاط وتخبط وتمـزق وخيبـة أمـل؟! ألا يستحق الناس من يربت على أكتافهم ويريهم بارقة مـن الأمـل في نهايـة النفق المظلم؟!

هذا الشيخ ومَن شابهه هو من حرَّم كـرة القـدم؛ هـو مـن قـال إن الديمقراطية والليبرالية "كفر"؛ هو مَـن حـرَّم الاحتفـال بـرأس الـسنة وعيد الأم وعيـد الحـب؛ هـو مـن حـرَّم علـم الآثـار وإهـداء الزهـور للمرضى والتصفيق وتحية العلـم والوقـوف للـسلام الـوطني أو دقيقـة حداد على أرواح الموتى؛ هو من حرَّم الحياة!

وفي الوقـت الـذي يتحـدث فيـه الغربيـون عـن "الفمتـو" ثانيـة والرقائق الدقيقـة والأليـاف الـضوئية و"النـانو تكنولـوجي" والمـريخ

(١) في نيجريا.

والاستنساخ والشريط الوراثي و"الجينوم" ما زال المتجمدون والمتحجرون والمتنطعون يتناقشون في دخول المرحاض بالهاتف المحمول إذا كان عليه قرآن؛ وهل يجوز الصلاة على الجريدة؟ وهل يجوز التبول واقفًا؟ وهل يجوز بيع القطط والكلاب؟!

فهم الغربيون السِّرَّ الذي أودعه المولى عقل الإنسان، أما نحن فقد انشغلنا بأسئلة وفتاوى لا تسمن ولا تغني من جوع من شاكلة: "هل كان لآدم سرة؟ هل يجوز أكل لحم الجن؟[1] هل يجوز صيد طائر العنقاء؟ بعدنا كثيرًا وتخلفنا كثيرًا؛ لأننا وهبنا حياة لم نَحْيَها وأُعطينا أرضًا لم نعمرها، وهكذا بقينا خارج المعادلة لأن المستقبل للنابهين لا للعقول الغوغائية الفارغة المُحاصرة التي ضيعت وتُضيع كل يوم بل كل ساعة ودقيقة أمانة التكليف.

إذا أردت أن تبحث عن الحقيقة فاخرج عن ثقافة القطيع، وغرِّد خارج السرب، واسبح ضد التيار، وكن غريبًا متفردًا، فالإنجازات الكبرى لم يأتِ بها أناس وقفوا في الصف يمسحون عرقهم حتى يصلوا لصنم المُقدس ليقبلوا يده ويحصلوا على البركة؛ الأفكار العظيمة لم تخرج ولن تخرج من أناس وضعوا عقولهم على أرفف الخرافة وفي خزانات النسك وأروقة الحكام واستعاضوا عنها ببطيخ وملفوف.

---

(١) أحل الداعية المصري محمد الزغبي أكل لحوم الجن، مشيرًا في فتواه إلى أن الجن يتشكل في صورة الإبل والماشية.

هكذا تكلم منصور.

لسان حاله يقول: "لا تحدثني عن كلاب الحوأب، ولكـن حـدثني عن الكلاب الضالة؛ لا تحدثني عـن جبـل الـذهب الـذي يـنجلي عنـه الفرات، بل حدثني عن جبل المقطم الذي تنهـار صـخوره؛ لا تحـدثني عن المهدي والسفياني والدجال، بل حدثني عـن أحمـد زويـل وفـاروق الباز ومجدي يعقوب؛ لا تحدثني عن شجرة الغرقد، ولكن حدثني عـن أشجار الموز والبرتقال وكل ما ينفع الناس من ثمار." هذا هـو منـصور، قدمه على الأرض، يأخذ بالأسباب ويؤمن بالأعمال.

(٢٣)

قابل منصور وكيل النيابة الذي رحَّب به وقدم له واجب الضيافة. سلمه منصور خطاب الانتداب، واستفسر عن طبيعة المهمة، رد مختار:

- منذ شهرين تقريبًا، غرق مركب هجرة غير شرعية قبالة سواحل رشيد، ربما سمعتَ عنه يا دكتور منصور؟

- أجل يا سعادة المستشار.

- غرقَ بعض الركاب من جنسيات مختلفة ونجا البعض، تحفظنا على الناجين، بالطبع وجهنا الاتهام لريس المركب؛ فقط لأنه حتى الآن لم يصدر قانون يُجرِّم الهجرة غير الشرعية.

- سمعت أن "البرلمان" في سبيله لإصداره.

- هذا صحيح يا دكتور، المهم سلمنا الناجين المصريين لذويهم مع أخذ تعهد عليهم بألا يعاودوا الكرة.

- لكنهم يفعلون.

- طبيعي يا دكتور فلا يخفى عليك صعوبة الحياة في بلادنا الآن.

- نعم، لكن ما علاقتي بهذا الأمر؟

- على رسلك يا دكتور، سلمنا الأجانب إلى سفاراتهم، لكن بقيت حالة واحدة احترنا فيها.

- كيف؟

- امرأة في منتصف العمر ملامحها تبدو مصرية، فلا هي صومالية ولا أريترية ولا سودانية ولا تشادية.

- حسن.

- انتظرنا إفاقتها من الغيبوبة التي دخلتها بسبب ارتطام في الرأس. وفي تلك الأثناء أرسلنا صورها إلى مديريات الأمن بالمحافظات كافةً حتى يتعرَّفها أهلها، لكن لم يأتِ أحد.

- وبعد؟

- منذ أسبوعين فقط أفاقت المرأة.

- جميل.

- اكتشفنا أنها تتحدث بلغة أجنبية لا نعرفها، فلا هي الإنجليزية ولا الفرنسية ولا الألمانية ولا الإيطالية ولا الأسبانية.

- إذن هي ليست مصرية؟

- محتمل. خاطبنا جميع السفارات التي عادة ما يتبعها المهاجرون، فلم يستدل عليها أحد.

- غريبة!

- فعلًا، لكن القادم أغرب. دعني أكمل لك.

- تفضل.

- في يوم من الأيام حضرَ شيخ صوفي في مستشفى رشيد العام مصادفة، جاء الرجل ليعود أحد أقاربه فسمع بحكاية المرأة فطلب رؤيتها ثم أفاد بأنها ملبوسة، وأن مَن يتحدث بهذه اللغة الغريبة هو الجني الذي لبسها، احتمال آخر ساقه الشيخ أن تكون هذه المرأة قد استخدمها شخص آخر وسيطًا في السحر أو التنويم المغناطيسي أو تحضير الأرواح والأشباح فحلَّ بها شيء ما رفض أن يغادرها.

- ممم.

- طبعًا اقترح الشيخ القراءة عليها وضربها لإخراج الجني، لكننا رفضنا. كل ما نخشاه الآن أن تكون هذه المرأة.. أن تكون..

- جاسوسة؟

- ليس تمامًا، أو لنقل ذلك، شيء من هذا القبيل، لماذا تهاجر هذه المرأة بشكل غير شرعي إلا إذا كان وراءها سِرٌّ؟!

- أكيد وراءها سِرٌّ.

قالها منصور وهو يسخر من داخله من نظرية المؤامرة التي نعطيها في مصر أهمية أكبر من نظريات "فيثاغورث" و"دارون" و"أرشميدس" و"نيوتن" و"أينشتين". حقًّا الضعيف هو الذي يلجأ دومًا إلى هذه النظرية ليواري بها سوءة هشاشته ووهنه، ولا بأس أيضًا باستدعاء ماضٍ تليد انقطعت صلة النسب بينه وبين الحاضر، مع شيء من تضخيم الذات المُفتعَل والإيحاء بأنه يعلم خيوط المؤامرة وما يُحاكُ له في الظلام وبعض العنتريات والقعقاعات والتهويش بسيوف خشبية في ظاهرة صوتية نادرة لا تجدها إلا عند أقوام يعيشون على هوامش الزمن.

انتشله وكيل النيابة من شروده قائلًا:

- نسيت أن أخبرك يا دكتور أننا أجرينا تحليلًا للحمض النووي الخاص بها، وأشارت النتيجة أنها تنتمي لمنطقة حوض البحر المتوسط، كما جرى تسنينها فجاءت في الأربعينيات من عمرها تقريبًا.

- جيد.

- ما نريده منك تحديدًا يا دكتور هو الاستماع إليها والاستدلال على لغتها.

- لا بأس، هيا بنا.

- تفضل.

(٢٤)

في ممر المستشفى الطويل وجَّه مختار بِك كلامه إلى منصور قائلًا:

- قمنا بحجز المرأة في غرفة منفصلة حتى تنجلي الأمور.
- أحسنتَ صُنعًا.

قالها منصور وهو يفكر فيما هو مُقدم عليه، ما إن شاهد جندي الحراسة سيادة وكيل النيابة حتى هبَّ منتفضًا مُحيِّيًا إياه بإحدى يديه ويده الأخرى تدق باب الغرفة وتفتحه في غمضة عين، قبل الدخول أخرجَ منصور هاتفه وضَبَطَه على وضع التسجيل، ثم وضعَه في جيبه. دلفَ مختار مباشرة في الحجرة، لكن منصور تردد برهةً على عتبة الباب ثم ولج.

ما إن التقت عيناه بعيني المرأة حتى تسمَّر مكانه قائلًا في سِرِّه: رانيا! وقف هناك غارقًا في عينيها حتى أنها شعرت بالخجل، كانت

نظراته إليها جد مختلفة. لم تكن نظرات إعجاب بجمالها الحالم الأخاذ بقدر ما كانت نظرات شوق وحنين واشتياق.

افتتح مختار بِك الحديث موجها كلامه إلى المرأة بالعربية قائلًا: "كيف حالك؟" وعندها انطلقت المرأة تتحدث بلغة غريبة، وتومئ بيدها وكل خلجاتها. بدا عليها الغضب.

أخرج منصور مفكرةً وقلمًا من جيبه وناول المرأة إياهما، لم تكترث كثيرًا، رسمت بيسراها شمسًا وجبلًا وبعض الأشجار عند قمته.

استمع منصور إليها بعنايةٍ، درسَ جميع العائلات اللُّغوية، لكنه لا يعرف تلك اللغة، في طريق العودة أبلغ منصور وكيل النيابة أنها فعلًا تتحدث بلغةٍ غير معروفة، سأله مختار:

- هل تظنُّ أن المرأة تتصنَّع؟

- لا أظنُّ، على أي حال سأفرغ محتوى التسجيل وأتشاور مع زملائي بخصوص الرسومات ونُجري بعض البحوث، ثم نردُّ عليك.

- تقرير رسمي.

- بالطبع.

- ويمكنك إرساله بالبريد المُسجَّل على قسم الشرطة، لا داعي لتعبك مرتين.

- أبدًا بالعكس، سأسرُّ برؤية سعادتك مرة أخرى.

- بالمناسبة، نسيتُ أن أخبرك أن الطبيب الشرعي فحصَ المرأة فتبيَّن أنها ليست عذراء، ولا يوجد في جسمها أي علاماتٍ مميزة من وشم أو خلافه باستثناء جرح ولادة قيصرية التئم بفضل خيوط تجميل طبية حديثة، كما وُجد معها صليبٌ فضيٌّ كبير نسبيًّا.

شردَ منصور وهو يتمتم في صدره: قبطية؟! لا بد أنها رانيا، ما أشدَّ الشَّبهَ بينهما! نظر إلى مختار بيه قائلًا:

- إذًا هي مصرية قبطية، وهذا ينفي عنها تهمة التجسس.

- ليس شرطًا.

- ألم تجدوا معها أي قرائن أخرى؟

- بلى، وجدنا وريقة صغيرة داخل الصليب مصقولة بالبلاستيك ومكتوبًا عليها آية من الإنجيل.

- هل لي أن أرى هذه الورقة؟

- لحظة، هي من ضمن الأحراز.

دقَّ مختار بِك جرس المكتب فجاءهُ شخصٌ طلب منه يحضر أحراز المرأة المجهولة، بعد خمس دقائق كانت القصاصة في يد منصور. "قف عند قبر راحيل (صم ١٠: ٢)".

- هل خاطبتم الكنيسة؟

- أجل خاطبنا الكنيسة المرقصية التي أرسلت بدورها صورة المرأة لجميع الكنائس والأبرشيات، لكن لم يتعرف إليها أحد.

- غريبة!

- فعلًا. جاءنا قسٌّ واستمع للمرأة.

- وماذا قال؟!

- ذكر شيئًا عن الإنجيل ومعجزة التحدث بلغات مختلفة.

- هل يمكن أن أتواصل مع هذا القس؟

- بالطبع لا يوجد أي مانع، سأرسل لك رقمه على هاتفك، فقط أعطني رقمك.

بينما كان منصور يُملي رقمه على وكيل النيابة عنّ للأخير أن يضيف شيئًا فانطلق قائلًا:

- بالمناسبة عرضت الكنيسة تسلُّم المرأة وإيداعها ديرًا أو خلافه. تسلمنا طلبًا رسميًّا، لكن لن نبتَّ فيه إلا عندما ننتهي من التحرِّيات.

(٢٥)

في طريق العودة إلى الإسكندرية مَرَّ منصور بمصبِّ النيـل، أوقـف السيارة دقيقةً وراح يتأمل بهاء المنظر وهذا المسافر الذي لم يتوقف يومًـا عن الجريان، ألقى الفراعنة فيه عرائسهم، ورمى فيه عمرو بـن العـاص خطاب الفاروق عمر، ولوَّثه المـصريون المحـدثون بمخلفـاتهم وروث بهائمهم، لكنه ظلَّ يترفع ويتدفق ويعطي بلا حدود.

نعم جرت في النيل مياه كثيرة. كم من المصريين شربوا ونهلـوا مـن مائه الزُّلال، ومنهم مَن عَبَدَ أصنامًا، ومنهم مَن عَبَـدَ الـشمس، ومـنهم مَن عرفَ الله، لم يسأل النيل أيًّا منهم عن ديانته قبل أن يمدَّ يده ليغـترف من مائه الفياض.

عاد منصور إلى سيارته وهو يفكر في المرأة التي رآهـا في المستـشفى ويقول: "صدقت رانيا حين قالت إنها لم ترحل. ما أشدُّ الشبهَ بينهما!"

أوصل هاتفه بسماعات السيارة وأخذ يستمع لصوت المرأة، ما هذه اللغة التي تـتكلم بهـا؟! أخـذ يحـصي الأصـوات، لا يوجـد في كلامهـا

أصوات مميزة تخصُّ لغة بعينها. العين والخاء والغين وغيرها أصوات فاصلة. كاد يخرج عن الحارة التي يسير فيها، وجد من المناسب أن يُرجئ هذا الأمر لحين عودته إلى الإسكندرية. عاد يفكر في المرأة أو رانيا سَمِّها ما شئتَ، جمالها يخلب العقل وملامحها نبيلة، كل الكلمات والعبارات التقليدية التي استُنبطت لوصف المرأة انتحرت أمام بهائها.

"جميلة".. نعم، لكن ماذا يمكن لهذه الكلمة ذات الحروف الخمسة أن تفعل أمام حُسنِها الباهر وعذوبتها التي تقطر شَهْدًا وحلاوةً؟ "رقيقة".. نعم، لكن ماذا يمكن لهذه الكلمة أن تكشف عن وجهها الملائكي وسِحرِها الفتَّان. كان جمالها مُخيفًا مَهيبًا.

راح منصور يتمتم بأبيات يحفظها: "لا أعرف اسمك، لا أعرف رسمك، لكني أعرف أنك قدري، أنك عمري."

تذكَّر ما قاله الشيخ الصوفي عن كونها ملبوسة، صحيح أنها جميلة ومغرية للإنس والجن على حدٍّ سواء، لكنه لا يميل إلى ذلك.

كان منصور صاحب عقل مستنير ونسخة طبق الأصل من الدكتور "إسماعيل" الذي حطَّم الوهم وفضح الأسطورة التي سكنت "قنديل أم هاشم". كَرِهَ الدَّجل والشعوذة والكهانة والهرطقة، كَرِهَ حكايات الصوفيين وشطحاتهم، كَرِهَ الخرافات والتُّرهات الدينية التي تُسيطر على الناس وتستعبدهم وتبتزُّهم.

الناس هم من يخلقون الوهم ويتوهمون الخرافة، كم من المقامات في مصر تحوي الخلاء وتضم الخواء! السماء تمطر، الزرع ينمو، العاقر تلد، المريض يصحُّ، المصادفة وحدها تصنعُ الخُرافة.

(٢٦)

تذكَّر منصور حكاية القس الذي زار المرأة المجهولة في رشيد وطالب بتسلُّمها، تناول الهاتف وأجرى اتصالًا به:

- سماحة القس "ميخائيل".. مساء الخير.

- مساء النور.

- معك الدكتور منصور، أستاذ اللُّغويات بجامعة الإسكندرية.

- أهلًا وسهلًا.

- نيافة القس، انتدبتني نيابة رشيد لمعاينة المرأة صاحبة اللسان الغريب، وأبلغني مختار بِك وهو من أعطاني رقم هاتفك أنك حين التقيتَها ذكرتَ شيئًا عن التحدث بألسنة متباينة في الكتاب المقدس.

- أجل.

- هل يمكن أن توافيني بتفاصيل أكثر؟

- أين أنتَ الآن؟!
- على مشارف أبي قير.
- سأنتظرُك في الكرازة.
- حسن جدًّا. هذا كرمٌ منك.

أحسَّ منصور بالجوع، وقف في منطقة المعدية، وتناول السمك المشوي في مطعم بسيط، كان ممشى الجسر يعجُّ بطاولات السمك، وارتفع صياح المارة وهم يفاصلون في سعر الأكوام التي تحوي أنواعًا غير متآلفة من الأسماك أو ما يطلق عليه السكندريون "شروة".

يَقِلُّ السمكُ نسبيًّا ويتغير طعمه من مارس إلى أغسطس، بينما يزيد في الشهور التي تنتهي بالراء من سبتمبر إلى فبراير، ويحلو طعمه كما هو معروف لدى سكان السواحل.

أخذت بعض القطط تلتهم الأسماك الميتة التي قتلتها مُخلَّفات المصانع، تجمَّعت بعض مراكب الصيد الصغيرة أسفل الجسر، مَنْ يَرَ هذه "الفلايك" من فوق مبنى شاهق يحسّ أنها أسماك صغيرة تنقر قطعة من الخبز أو قُلْ عشرات من الحيوانات المنوية تتدافع جاهدةً لتجتاز قناة "فالوب" وتظفر بالغنيمة.

في المسافة بين أبي قير والمندرة أخذت الأجواء تتبدَّل، اختفت الأبراج العالية، وحَلَّ محلها بُحيرة مريوط حين كانت متمردة، يقولون: إذا دخلتَ الإسكندرية وصرتَ بين البحر والبحيرة أطبقتْ عليك فصرتَ أسيرَها وصارَ الفِكاكُ منها أمرًا مستحيلًا.

تبدَّلت سيارته الحديثة بأخرى قديمة وتبدلت ملابسه وتغير منظـر البحر وظهرت القصور والفيلات القديمة بحـي الرمـل، ورأى عمـود السواري من مسافةٍ بعيدة. وظَلَّ هكذا يعـود في الأزمنـة الغـابرة حتـى وصل باب شرق، فوجد لوحة كبيرة كُتب عليها "باب رشيد".

انطلق نحو حي محرم بيه وبحث عن العمارة التي يسكن فيهـا فلـم يجدها. يحبُّ هذه العمارة كثيرًا بالرغم أنهـا ليـست "الكونكـورد"[1] أو "يعقوبيـان" أو "ليبـون" أو "الإيموبيليـا" أو ر"يـسوتو".[2] عـاد إلى الواقع فوجدَ نفسَه أمام الكرازة.

---

(١) عمارة شهيرة بشارع الغرفة التجارية بالإسكندرية.

(٢) عمائر شهيرة بالقاهرة. خلَّد الروائي عـلاء الأسـواني الأولى في روايتـه "عـمارة يعقوبيان".

(٢٧)

حين وصل الدكتور منصور إلى الكـرازة كـان القـس ميخائيـل في انتظاره. شَكَرَ للقسِّ الدعوة، ردَّ الأخير قائلًا:

- نريدك أن تساعدنا في ضمِّ المرأة لأحد الأديرة.

- مختار بِك ليس مقتنعًا تمامًا.

- لأنه يبحث عن موضوع.

- الصليب الأرثوذكسي أنهى الأمر.

- بشكل كبير نعم، لكن لو كان هـذا الـصليب مـدقوقًا لحـسمه بشكل باتٍّ.

- كيف؟!

- عادة ما ندقُّ – نحن الأقبـاط – الـصُّلبان في سَـنِّ الخامـسة أو السادسة، دَقُّ الصلبان عادة قبطيـة بحتـة تعـود إلى عـصر الاضـطهاد،

الصليب كان رسالة إلى الصِّبية والصبايا أنهم أقباط ذلك لو فقدوا والديهم.

- وماذا عن الآية، "قف عن قبر راحيل"؟ ما دلالتها؟

- "راحيل" يا دكتور هي الزوجة الثانية ليعقوب التي ظَلَّ يعمل أربعة عشر عامًا ليتزوجها، ماتت وهي تلد بنيامين، شقيق يوسف، راحيل هي غُربتنا عن الطريق وعن أنفسنا وعن أوطاننا، راحيل هي الدنيا التي نطلبها ثم نفقِدُها، راحيل هي سعيُنا نحو المجهول واشتهاؤنا لكل ما ليس في أيدينا.

- أجل.

- كل ما نحتاجه هو وقفة عند قبر راحيل نُصوِّب فيها أنفسنا قبل أن تأتي النهاية.

- صدقتَ.

- لكننا نمضي في جزعٍ ونهمٍ وهلعٍ من يوم لآخر ومن شهرٍ لشهر دون أن نسأل أنفسنا كم أضعنا من السنين وراء مال أو شهوة أو منصب أو متعة أو فتنة، ثم تأتي النهاية ونكتشف كم كنا مخطئين لأننا لم نقف عند قبر راحيل.

- فهمتُ نيافتك.

- نعود لموضوع الزيارة إذًا.

- أجل.

- علمتُ أن شيخًا عاين المرأة في المستشفى وخلص إلى أنها ملبوسة أو وسيطة.

- صحيح. هذا ما قاله لي مختار بِك.

- ولو رآها بوذي أو هندوسي أو درزي يؤمن بتناسخ الأرواح لقال إن روحًا أخرى حلت بجسمها.

- حقًّا؟!

نطق بها منصور وهو يفكر في قضية المستعمل والمستخدم، لو أن هذه النظرية صحيحة لأصبح لدينا تعبير لغوي جديد اسمه "الروح المستعملة". لم يمهله القس ليتمادى في شطحاته، جاء ردُّه سريعًا:

- مؤكد.

- حضرة القس، أليس العالم كله من روح الله؟

- بلى.

- والرب نفخ في مريم من روحه، العلم يقول إذا كان الكل قابلًا للانقسام فإن الجزء كذلك ينقسم ويتحد مع الكل من جديد على منوال ما ذهب إليه "الحلاج".

- حسن، هذا بحث قرأته عن فكرة تناسخ الأرواح، تلك نسخة لك، ستكتشف يا دكتور أن بيننا كثيرين يؤمنون بهذه الفكرة ومنهم مسلمون ومسيحيون.

- شكرًا نيافتك.

- أما أنا فسأحدثك من الإنجيل.

- تفضَّل، لكن اسمح لي، هل يمكن أن تكون المرأة عائدة من الموت مثل "لازاروس"؟

- لا طبعًا هذا مستحيل، لكن يسوع وعد أصحابه بأن يتحدثوا بألسنة جديدة. هكذا ورد في الإصحاح السادس عشر من إنجيل مرقص الرسول.

- وما كان الغرض من الألسنة الجديدة؟

- الانطلاق برسالة الخلاص إلى كل الشعوب والتكلم معها.

- وهذا يعني أنهم نطقوا بألسنة حية؟

- ماذا تقصد يا دكتور؟

- أقصد بلغات شعوب وُجدت وقتها وليس بلغات ميتة.

- مؤكد، لكن ما الذي يجعلك تقول ذلك؟!

- لدي إحساس أن المرأة تتحدث بلغة منقرضة، لا أستطيع الجزم الآن، أحتاج مزيدًا من البحث.

قالها منصور وهو يهمُّ بالانصراف، علَّق الأب:

- شكرًا لك ولمرورك.

- الشكر لك سماحة القس ميخائيل.

(٢٨)

فتح منصور باب شقته وقصد غرفة نومه مباشرة وانهار على فراشه وهو لا يصدق ما حدث له، يوم طويل ومشحون بالأحداث. كان قد التقط بجواله صورة لامرأة رشيد خلسة، أخرجَ الصورة وراح يُحدِّقُ إليها. طَبَعَها بالألوان وعلَّقها على مرآة الدولاب، نزع من دفتره الورقة التي رسمت عليها المرأة الشمس والجبل الذي تكسو قمته الأشجار وعلَّقها بجوار الصورة، نظر إلى الصورتين بتمعُّنٍ ثم عاد ونقلهما إلى مكان بغرفته تسقط عليه أشعة الشمس تمامًا كما تسقط على قدس الأقداس بمعبد أبي سمبل.

نظر إلى صورة المرأة قائلًا: أنتِ الشمس كما كانت "بياتريس"، هكذا وصف "دانتي" حبيبته في الكوميديا، مَن أنتِ؟ أأنتِ "سيليا" حبيبة "وردسورث"؟ أأنتِ "إيروديايس" حبيبة "أورفيوس"؟ أأنتِ "جوزفين" حبيبة نابليون؟

كانت صورتها مزيجًا من "الموناليزا" "وبورتريه ماري أنطوانيت"[1] "وبورتريه" الأميرة فاطمة بنت الخديوي إسماعيل[2] و"الفتاة التي ترتدي القرط المصنوع من اللؤلؤ".[3]

أحضر العدسة المُكبِّرة من غرفة مكتبه ونظر من خلالها إلى عينيها البراقتين اللتين تشبهان عيون المها، رأى أن هذا الضوء في عينيها قد تحوَّل إلى نجمٍ يُضاهي في لمعانه نجم الشمال الذي يهتدي به التائهون والحيارى في البحار والصحاري!

مَن تكون هذه المرأة التي تنفجر النجوم في مقلتيها؟ حملق في عينيها فشعر أنه يعوم في المتوسط ويركب أمواجه ويصعد الجبال وينزل الوديان ويكتشف الصحاري ويسير على الثلوج ويُطفئ حرائق الغابات. أخذ يُحدِّق إلى الصورة حتى أحسَّ أنه صار داخلها وأنه قَفَزَ داخل عينيها وسافر فيهما عبر الزمن.. عبر درب التبانة أو طريق الحج أو طريق التوابل.

تمدَّد من جديد ثم انتفض من رقدته. أضاء "الأباجورة" الجانبية وأمسك بالبحث الذي أعطاه إياه القسُّ ميخائيل، أخذ يقلب فيه ثم قرأ: "أورد طارق سري في كتابه المعنون: "تناسخ الأرواح[4]" قصة

---

(١) للرسام چوزيف داكرو.

(٢) موجود في قصر الضيافة بالقلعة.

(٣) للرسام چان فيرمير.

(٤) دار مشارق، الجيزة، ٢٠٠٩، ص ١٦٣.

غريبة نشرتها جريدة الأهرام عام ١٩٢١ عن امرأة أمريكيـة تُـدعى إتمـا بيل فيلد، هذه المرأة ما إن تضع القلم الرصاص على الورق حتى يتحرك دون إرادة منها فيرسم صور مصرية قديمة!"

أيمن الدبوسي. نقرأ من روايته انتصاب أسود[1] عن تسنيم: كانت تربي في بيتها عددًا هائلا من الحلازين المائية داخل حوض ضـخم للأسـماك. وتعتقد أن روحها ستبعث من جديد في جسم حلزون، مثلما كانت عليه في حياة سابقة."

ألقى منصور البحث جانبًـا وهـو يقـول: "حلـزون!"، هـذا شيء مقرف، هل يمكن أن تنتقل روح بشرية إلى حيـوان؟! يعـرف أن هنـاك كائنات بشرية مُسخت إلى حيوانات؛ يعلم أن هناك حيوانات تكلمـت، لكن يبقى التناسخ نظرية فاسدة، وأنها لو كانت صحيحة لما زاد سـكان المعمورة، وحتى لو كانت حقيقـة فإنـه يتمنـى أن يكـون أي شيء غـير الحلزون، ربما قطًّا.

يحب القطط كثيرًا، ولديه قِطٌّ في المنزل، تـذكَّر القـط فقـام يبحـث عنه، لم يجده، أمسك بعلبة الطعام الجاف وهزها مُحدِثًا صوتًا عاليًا انطلق على إثره قِطٌّ جميل من مكانٍ ما وحطَّ على قدميه والنـوم في عينيـه وراح يتودد إليه.

---

(١) منشورات الجمل، بغداد – بيروت، ٢٠١٦، ص ١١.

وضعَ منصور له الطعام ووجَّه حديثه للقط قائلًا: "مانو.. لو كان بالإمكان أن نتبادل المواقع، بمعنى تصير أنت منصور أستاذ اللغويات التاريخية وأصير أنا مانو الذي لا يفعل شيئًا سوى الأكل والنوم.. هل توافق؟!"

نظر القط إلى منصور نظرة عميقة ثم تركه ودخل تحت الأريكة ولسان حاله يقول: "هل جننت؟!" وصلت الرسالة وجاءت الإجابة.

البراءة ردف السعادة. الفكرة تجلب الحسرة، بيد أن منصور اختار الطريق الأصعب كما فعل "هيجل" و"مندل" و"باستير". أين هو من الذين ضحوا بأنفسهم وحياتهم خدمة لأهدافهم النبيلة؟ قضت مكتشفة الراديوم، "مدام كوري"، عام ١٩٣٤ متأثرة بالإشعاع الذي تعرضت له في أثناء إجراء تجاربها. "توماس إديسون" جرَّب مركبات كيمائية على نفسه فتعرَّض للحرق والصعق والتسمُّم! "كابتن سكوت" لفَّه الردى هو وأعضاء فريقه بالكامل وهم يحاولون ارتياد القارة القطبية الجنوبية. عباس بن فرناس و"إيكاروس" لقيا حتفهما لأنهما أرادا الطيران، يُقال إن القس "چيرونيمو" أمضى عشرين عامًا في القدس ليترجم الكتاب المقدس إلى اللاتينية! كم من السنين أمضاها "ماجلان" و"فاسكو دا جاما" في المحيطات والبحار؟! كم من الوقت والجهد أُستنفدا لاكتشاف "البنسلين" و"البنج" وعلاج "الكوليرا" و"البلهارسيا"؟!

(٢٩)

في صباح اليوم التالي أخذ منصور يُقلِّب الصحيفة في مكتبه بالكلية وينتظر قدوم الدكتور عدلي. بدأ بصفحة الحوادث وهاله ما وَجَدَ: هـذه امرأة جمعت بين ثلاثة رجالٍ في وقتٍ واحد، وتلك امرأة قطعت العضو الذكري لزوجها بآلةٍ حادة لأنه تزوَّج بأخرى! هذا موظف بنك اختلس جنيهًا من جميع الحسابات، وهذا موظف ماليات ربـط وديعـة برواتـب العمال والموظفين بالشركة مدة أسبوع، هذا صاحب مطعـم يجمـع بقايـا الطعام ويُعيد تقديمه، هذا وغد باع مياه النيل على أنها ماء زمزم، وهـذا رجل باع "شكائر" جبس على أنه دقيق.

استوقفه خبر بعنوان "القبض على مجنون فادية". الموضوع ببـساطة أن شابًّا يقتفي أثر فتاة أينما ذهبت ولا يتعرض لها عـلى الإطـلاق، قـدَّم أهل الفتاة بلاغًا ضده فأحضرته الشرطة وتم فـتح محـضر وأُخِـذَ تعهُّـد عليـه بعـدم ملاحقتهـا، لكنـه نكـث وعـده فـتم القـبض عليـه بتهمـة

التحرش، لم يتكلم الشابُّ كثيرًا، لكنه قال إنه معجب بها وأن شيئًا ما يدفعه إلى السير وراءها.

مسكين هذا الشابُّ! أي جُرمٍ اقترف؟! يقول إن هناك ما يسلب إرادته أمام هذه الفتاة ويدفعه للسير خلفها. يقول إنه رآها مصادفة في محطة ترام "بوكلي". كانت تهمُّ بالركوب بينما يستعد هو للنزول فعاد أدراجه.

ألم يكن أجدر بفادية تلك أن تستمع إليه وتتحدث معه، فالشاب ليس بلطجيًّا ولا عاطلًا، بل موظف ذو حيثية في جمارك ميناء الدخيلة وحاصل على بكالوريوس التجارة؟

مَن يدري ربما كان سر سعادتها. ما ضرها لو أعطته فرصة وشجعته للتعبير عمَّا يريد؟! ألا يمكن أن يكون هذا الشاب نصفها الآخر؟ لماذا نستنزف الوقت والجهد في البحث ومغالبة الأشواق ومكابدة الهوى وذرف الدموع؟!

ما ضر والد فادية تلك لو وافق على ارتباطه بها؟! مسكين هذا الشابُّ "مؤمن"! لقد أمَرَ القاضي بعرضه على استشاريين في الصحة النفسية. ذكّر هذا الشاب منصور بالعذريين الذين يذعنون للحب باعتباره قضاء من الله فلا الدين يمنعه ولا الشريعة تحرمه وتجرمه، فإن ماتوا وهم على ما هم عليه من العشق والكتمان فقد ماتوا شهداء.[١]

(١) راجع كتاب "مجانين العشق العربي" لأحمد سويلم.

(٣٠)

التقى منصور في معمل الصوتيات بالدكتور عدلي، أستاذ اللغويات العصبية والدكتورة زينب أستاذة التخاطب ومشكلات النطق، بعد تحليل الأصوات ومقارنتها بجميع المعلومات المُخزَّنة عن العائلات اللغوية قال الدكتور عدلي:

- لا أظن أن هذه لغة حية، إلا إذا..

رد منصور وهو يُخرِج دفتره:

- إلا إذا ماذا؟

- إلا إذا كانت لغة من لغات أدغال أفريقيا أو حوض الأمازون التي ليس لدينا عِلمٌ عنها ولا احتكاك بمن يتحدث بها.

- هذا مستبعَد جدًّا.

- أجل يا دكتور منصور. هذا مستبعد بالمرة. دكتورة زينب ماذا عن الأفازيا[1].

- تقصد السكتة أو الحُبسة اللغوية التي قد تطرأ بعد حادث معين؟

- نعم.

- ماذا عنها؟

- هل من الوارد أن يعقبها التحدُّث بلسان مختلف؟

- هذا احتمال ضعيف جدًّا يا دكتور عدلي.

- إذًا بعد استبعاد كل الاحتمالات الممكنة لم يعد أمامنا غير احتمال واحد.

خيَّم الصمت على المكان فترةً وجيزة، صمت قطعه منصور قائلًا:

- "الزينوجلوسيا".[2]

تدخلت الدكتورة زينب قائلة:

- معقولة يا دكتور منصور؟! على حد علمي لم يُسجل غير عدد قليل منها، وأغلب الحالات تندرج تحت متلازمة اللكنة الأجنبية[3]

(1) Aphasia.

(2) Xenoglossia.

(3) Foreign Accent Syndrome.

بمعنى أن تستيقظ الحالة من الغيبوبة بعد إصابة في المخ ونتيجة لتأثر مركز اللغة تجد نفسها تتكلم لغتها نفسها لكن بلهجة مختلفة: إنجليزية مثلًا بلكنة ألمانية أو روسية بلكنة فرنسية وهكذا، كما أنه لم تسجل حالات في محيطنا العربي، أليس كذلك يا دكتور عدلي؟

- دعك من محيطنا العربي. نحن أمة لا تحترم العِلم، ليس صحيحًا أن العرب البائدة مَن بادوا لأن من يعيش في الدول العربية الآن هم العرب البائدة! حناجر غليظة! ظاهرة صوتية! قوم لم يتفقوا على عطلة نهاية الأسبوع كيف لهم أن يتفقوا على أسس للبحث العلمي؟

- ما هذا التحامل يا دكتور عدلي؟

- لستُ متحاملًا يا منصور، عندما ظهرت حالة الطفل المغربي "عثمان تغبولا" في مكناس في نهاية الألفية الثانية كنتُ ساعتها أعمل في الدكتوراه، وطلبتُ الالتقاء بالطفل، لكن طلبي قوبل بالرفض، وقيل ساعتها إن أهله هم الذين رفضوا خوفًا عليه من الحسد.

سألت الدكتورة زينب:

- ذكِّرني يا دكتور بهذه الحالة.

- حالة طفل تحدث فجأة الألمانية بطلاقة دون تعلُّم، على أي حال أنا واثق أنه توجد حالات عربية من "الزينوجلوسيا"، لكنها تعالج بالضرب على أنها ملبوسة بالجان، أليس هذا ما طرحه الشيخ بمستشفى رشيد يا دكتور منصور؟

- أجل. هذا ما قيل لي، ولم أكن شاهدًا على الواقعة، وأحمدُ الله أنه لم يخرج علينا أحد ليقول إنها كانت تعيش مع الحيوانات أو أنها كانت مخطوفة من قبل كائنات فضائية أو ما شابَهَ.

علقت الدكتورة زينب:

- أو مستنسخة.

ضحك الدكتور عدلي قائلًا:

- بمناسبة الاستنساخ حضرت أمس ندوة عن هذا الأمر وأُثيرت خلالها أسئلة جدلية من على شاكلة: هل الاستنساخ وسيلة لقسم الأرواح؟ وهل المُستنسخ له روح؟ وهل يحاسب يوم القيامة؟

- لكن هل تم فعلًا استنساخ بشر يا دكتور عدلي؟

- لا أدري يا دكتورة. ربما.

ساد الصمت مرة أخرى، صمت من التفكير قطعه منصور قائلًا:

- لنعد لموضوعنا. أول حالة من التحدث اللغة الأم بلكنة أجنبية قوية سُجلت بشكل علمي عام ١٩٤١ في أثناء الحرب العالمية الثانية، امرأة نرويجية تُدعى "ريتا هندرسون" أُصيبت بشظية وبعد أن عولجت وأفاقت تحدثت النرويجية بلكنةٍ ألمانية، ولجهل الناس ظَنَّ العامة أنها جاسوسة وأعدموها، وهذا لا يختلف عن ظنِّ وكيل النيابة في امرأة رشيد.

تدخلت الدكتورة زينب قائلة:

- اسمح لي.. هل يظن أنها جاسوسة؟!

- أجل، وأنها تتصنَّع كل هذا.

أخذ الدكتور عدلي بخيط الحديث مضيفًا:

- ألم أقل لكم إننا أمة لا نحترم العلم؟ أكمِلْ يا منصور.

- فيما يتعلق بـ "الزينوجلوسيا" لدينا حالة سُجلت عام ١٩٣١، كما قام "أيان ستيفنسون"(١) بتسجيل حالات أخرى.

- ١٩٣١؟ تقصد حالة "روزماري" من مقاطعة "بلاكبول"(٢) الإنجليزية.

- تمامًا يا دكتور عدلي، عادت الحالة من الغيبوبة لتتحدث المصرية القديمة، الغريب أنها لم تَزُر مصر مطلقًا، لا هي ولا أحد من أسرتها أو عائلتها!

---

(1) Ian Stevenson.

(2) Rosemary of Blackpool.

(٣١)

أوصى الدكتور منصور، الخبير المنتدب، واللجنة الفنية المُشكَّلة من الدكتور عدلي والدكتورة زينب بالتعامل مع امرأة رشيد على أنها حالة عِلمية من "الزينوجلوسيا"، كما أوصوا بنقلها إلى مستشفى جامعة الإسكندرية المعروف بالميري حتى يسهل دراسة الحالة وإكمال البحث الخاص بها والإعلان عنه ونشره.

أرسلَ منصور التقرير على فاكس مختار بِك وكُلُّه أملٌ أن النيابة ستنزل على رغبة الجامعة، اتصل بمختار بِك غير مرةٍ فلم يرد، لَعِبَ الفأر في عِبِّه، فانطلق بنفسه إلى رشيد، أراد أيضًا أي تكأة ليرى رانيا أو المرأة. قَصَدَ المستشفى أولًا، لكنه لم يجدها ولم يجد الحارس الذي اعتاد الوقوف على غرفتها. دَقَّ قلبه بشدة وجُنَّ جُنونه، نادته "أشجان" الممرضة قائلة:

- دكتور.

- أنا؟!
- نعم.
- أين هي؟!
- سأقول لك.

أخذت المرأة تتكلم بصوت خافتٍ وهي تنظر يمنة ويسرة في خوف. قالت له إنها كانت المسئولة عن إعطاء المهدئات للحالة، وأنها تعاطفت معها بشدة، قالت له إنها استشعرت مدى اهتمامه بالمرأة المجهولة، أسرَّت إليه أن جندي الحراسة حاول التحرش بالمريضة، لكنها صرخت فاضحة إياه، أضافت أن مختار بيه طلب منها أن تُبقي فمها مغلقًا فالسمكة التي تفتح فمها يتمُّ اصطيادها على حدِّ قوله. أما الحالة فقد أرسلها إلى مستشفى المعمورة للأمراض النفسية بعد أن أُجبر أحد الأطباء على كتابة تقرير يفيد أن المرأة المجهولة تُعاني الفصام، وأن هذا الأمر هو ما أثَّر في لُغتها. أراد أن يغطي على واقعة الجندي خاصة بعد أن تبيَّن أنه قريب لعضو مهمٍّ في البرلمان.

نَزَلَ الخبر على منصور كالصاعقة، جلس قليلًا في الاستقبال يفكر في هذه المعطيات الجديدة. هل ينسى الأمر برمته؟ هل يفضح المستور ويحكي عما حدث للفتاة في المستشفى؟ هل يذهب لمقابلة وكيل النيابة وكأن شيئًا لم يحدث ثم يفتتح فصلًا جديدًا في الإسكندرية؟

(٣٢)

انطلق منصور مباشرة إلى قسم الشرطة، حاول التحكم في أعصابه قبل أن يُؤذن له بالدخول على مختار بِك. قرَّر ألا يفتح معه أي موضوع بخصوص ما سمعه من أشجان حفاظًا عليها، أراد أن يشتري منه أولًا. أخذ رشفة من القهوة التركية الزكية بينما كان وكيل النيابة يتحدث في الهاتف.

جال ببصره في المكتب المشبع برائحة التبغ. لفت نظره وجود لوحة خلف مختار بِك كتب عليها: "طوبي للذين يعملون في صمت خلف الستار. قال تعالى: ﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ ﴾ (القصص – ٢٤)." أنهى مختار بيك مكالمته فنظر إليه منصور قائلًا:

- ما رأي سعادتك في التقرير؟
- جيد، لكن صعب تصديقه.

- أتفقُ معك أن هناك نظرياتٍ وظواهر علمية صعبة التصديق، لكنها تبقى دامغة الحقيقة.

- أي حقيقة؟! الحقيقة نفسها نسبية. الذي أعرفه أنه كلما تقدم الإنسان في العمر كان من الصعب عليه تعلم لغة جديدة والنطق بها كأهلها. أنا شخصيًّا حاولت تعلُّم الفرنسية وفشلت.

- هذا صحيح. نُسمي هذا بالتحجُّر اللُّغوي.

- أنت تُناقِضُ نفسك إذًا.

- أبدًا، تذكَّر سعادتك أنكم وجدتم معها قُصاصة من الإنجيل بالعربية، أليس هذا دليلًا أنها كانت تتكلم العربية قبل الحادث؟

- يا دكتور الصليب بما فيه وُجِدَ في يدها، لم تكن تلبسه، من الجائز أنه لا يخصُّها أساسًا.

- كيف؟!

- في أثناء الغرق يتعلق المرء بأي شيء ظنًّا منه أنه سينقذه، ألم تسمع العبارة التي تقول: "الغريق يتعلق بقشة"؟ مِن الجائز أنها تشبثت برقبة أي شخص في الماء فدفعها بعيدًا عنه أو عنها فقطعت الصليب وظلت تمسك به في يدها دون وعي.

خيَّم الصمت وهلةً على الجلسة، قطعه منصور سائلًا:

- هل سمعت يا مختار بيه عن أحمد خالد توفيق؟

- لا، مَن هو؟

- طبيب مصري وكاتب وروائي.

- وما صلته بالأمر؟

فتح منصور حقيبته فأخرج منها كتابًا، استطرد قائلًا:

- هذه نسخة من كتابه: "الآن نفتح الصندوق".[1] في صفحة ٣٦ منه أورد الكاتب قصة عن "الزينوجلوسيا". دعني أقرأ لك بعض السطور: "عندما كانت المرأة جالسة مع زوجها تحكي له عن مشاكل مع خالتها.. هنا بدأت تتكلم لعشر دقائق بتلك اللغة الغريبة. الزوج ظل يرمقها في دهشة ثم راح يهزها كي تتوقف لكنها ظلت تتكلم كأنها تشرح له أشياء." سأترك لك الكتاب لتكمل القصة بنفسك.

لم يكترث مختار كثيرًا بكلام الدكتور منصور، وتسلَّم الكتاب بيد فاترة. وَضَعَه على المكتب وغلافه نحو الداخل ثم عقَّب:

- هذا كلام روايات.

- لا غير صحيح يا مختار بيه. هذا عِلم. المهم هل ستلبون طلبنا بنقل المرأة المجهولة إلى المستشفى الميري؟

- لا يمكن أن نسلمها لأي جهة غير مختصة، لقد رفضنا من قبل طلب الكنيسة، هذه المرأة طبقًا للقانون فاقدة للأهلية، وعلى أي حال

(١) دايموند للنشر، الكويت، ٢٠٠٩.

لقد أرسلناها بالفعل إلى مستشفى بالإسكندرية، لكن ليس المستشفى الجامعي، بل مستشفى المعمورة.

- لِمَ؟

- لأنه تبين أنها مصابة بمرض نفسي، ربما "شيزوفرنيا". فعلنا ذلك بموجب تقرير رسمي. هذا أيضًا علم كعلمكم.

- أهذا هو السبب الوحيد؟

- ماذا تقصد؟

- لا شيء. أستأذن بالرحيل، لكن اعلمْ يا مختار بِك أنكم أهدرتم وأضعتم على البشرية مفتاحًا من مفاتيح العلم.

- كُلٌّ يبكي على ليلاه، تصحبك السلامة يا دكتور وشاكرين لتعبك. لقد تحملت عناء السفر دون مبرر.

(٣٣)

عاد منصور إلى الإسكندرية بخُفي حُنين يجرُّ أذيال الخيبة، اتصل بأستاذه الدكتور عدلي الذي عاد وكرَّر أن بلادنا لا تحترم العلم والعلماء ولا تخصص الدعم اللازم لهم ولا المال الضروري للارتقاء بالأبحاث والدراسات العلمية. طلب منه منصور البحث عن معرفة في مستشفى المعمورة فوعده بذلك، تبين أن للدكتورة زينب صديقة هناك، بعد ثلاثة أيام كان مُصرحًا لمنصور بالزيارة.

كما أن جامعة عين شمس تقع في العباسية وبرج القاهرة في الجيزة، توجد مستشفى المعمورة في "العوايد"، هذا أمر عادي كأي شيء متناقض ومقلوب في مصر.

قابلته الدكتورة عنايات في مكتبها، كان لديها فكرة كاملة عن الموضوع من صديقتها الدكتورة زينب، قبل أن تسمح لمنصور برؤية المرأة المجهولة في حديقة المستشفى قالت له:

- دكتور.. هناك أمر أريد أن أتحدث معك بشأنه.

- تفضلي.

- دكتور اسمح لي أن أُذكِّرك أنك تتعامل مع إنسانة من لحم ودم وليس فأر معمل.

- ما الذي يجعلكِ تقولين ذلك يا دكتورة؟!

- هذا واجبي. المرأة أعصابها متوترة وتفقد الوعي واضطررنا لإخضاعها لجلسات كهرباء.

انتفض منصور قائلًا:

- ماذا؟! لِمَ فعلتم ذلك؟ قد يؤثر ذلك في حديثها.

نظرت إليه الدكتورة عنايات باستغراب قائلة:

- نحن نعرف عملنا، هذا تمامًا ما قصدته، التجربة العلمية والمشاعر الإنسانية. أنتَ عالم لُغويات فلا تكن "هنري هيجنز" في "سيدتي الجميلة" حين انصبَّ همُّه كله على التجربة وتعامَلَ مع بائعة الورد، "إليزا دوليتل"، كما لو كانت "ضفدع داروين". تعامَلَ معها كما لو كان هو الذي صَنَعَها تمامًا كما في أسطورة "بيجماليون". هل سمعت عن "حذاء أمبيدكول"؟[1].

---

(1) Empedocles.

- لا. أليس هذا الفيلسوف اليوناني الذي اعتقد أن النار هي المُطهر لكل الآثام؟!

- بلى. ألقى نفسه في فوَّهة جبل "إتنا" البركاني بصقلية، قذفت الحُمم حذاءه للخارج، أخذ تلاميذه يفكرون بأمر الحذاء وكيف طار في الهواء عوضًا عن التفكير في مصير معلمهم!

فَهِمَ منصور الرسالة، هَزَّ رأسه بالموافقة على كلام الدكتورة عنايات، لكنه لم ينبس ببنت شفة.

(٣٤)

اصطحبت ممرضة المـرأة المجهولـة إلى حيـث ينتظرهـا منـصور في حديقة المستشفى. كانت الدكتورة عنايات ترقب المشهد من وراء ستائر مكتبها. تعجبت حين رأت المرأة المُتململِة في ذراع الممرضـة تهـدأ تمامًـا حين رأت منصور.

مَدَّ لها يَدَه فسلمت عليه ثم جلسا. كانت يدها بضة وناعمة ودافئـة بالرغم من برودة الجو، هذه أول مرة ينفرد بها، لاحـظ عليهـا الإجهـاد والتعب وهالات سوداء تحت جفونها، نَظَرَ إليها طويلًا، قـال لهـا وهـو يُشير إلى نفسه: منصور، ثم استفسر بكـفِّ يـده عـن اسـمها. تمنـى أن تقول: "رانيا"، لكنها ردت بعد فترة: "إيدا". قال في نفسه: إيـدا! اسـم غير مألوف ومؤكد غير مصري.

لا يفصل بينه وبينها الآن سوى ذراع، تفـرَّس في وجههـا الجميـل مُـردِّدًا: "أيُّ سِرٍّ فيـك؟ إني لـستُ أدري، كـل مـا فيـك مـن الأسرار

يُغري."[1] أحست بنظراته إليها فابتسمت ابتسامة رقيقة وخفضت رأسها خجلًا، هذه لعمرك أقوى لغات الأرض، لغة لا تتبدل ولا تنقرض، اليوم لك وحسب يا "إيدا".

كانت "إيدا" أيقونة امتزج فيها الجمال الفرعوني بالسحر اليوناني والنبل الروماني، تمتلك عينين واسعتين كبحيرة فيكتوريا أعلى منابع النيل. كانت بيضاء لحدِّ الهوس. يتجمع الورد في أطراف أصابعها وكعبيها وخديها وأنفها الذي يحيط به نمش خفيف، رموشها كسعف النخيل، شعرها أحمر كستنائي بلون الحنة وطويل كشلال "أوزود".[2] عيناها تنكسر فيهما ألوان الطيف وشمس الأصيل، ممشوقة القَدِّ، طرية الملمس. خِصرها كالكمنجة أو الساعة الرملية، يتنفس صدرها بحرية فتشعر أن رئتيها ونهديها شيء واحد.

ما هاتان الشفتان الممتلئتان بفراولة كاليفورنيا ورمان منفلوط؟! ما هذي الأسنان التي يشبه بياضها لوز القطن وغزل البنات؟! انظر إلى دقة الحُسن لديها وانظر إلى رقبتها المشرئبة كجمار النخل وانظر إلى أذنيها الصغيرتين اللتين لا تحتاجان قرطًا لأنهما كقطعتين من الألماس، انظر إلى عينيها اللوزيتين وحاجبيها الدقيقين كالقمر في كسوفه الجزئي وجبهتها الناصعة ثم أخبرني: "هل شاهدت يومًا امرأة بهذا الحسن؟"

---

(١) إبراهيم ناجي، "الخريف".
(٢) في المغرب.

لا تحتاج لمصفف شعر لأن شعرها أنعم من حرير القز، ولا لمكحلة لأن عينيها أجمل من عيني ملكات الفراعنة، لا تحتاج إلى مسحوق الخدود لأن خديها كتفاحتين مشوبتين بالحُمرة انشطرت نصفين، هي البدر ليلة اكتماله. قدُّها كغصن البان، وأنفها كسلة السيف، أو أنف "صوفيا لورين"، وثغرها الصغير في حجم النبقة. هي كل شيء جميل.

ضع "فينوس" مع "أفروديت" و"عشتار" و"شهرزاد" و"أرمنوسة" وخذ أجمل ما في "هيلين" الطروادية وليلي العامرية و"إستير" اليهودية وكليوباترا البطلسية ونفرتيتي الفرعونية وبلقيس وعائشة بنت طلحة وهند بنت المهلب وقَطْر الندى بنت خمارويه، وضَعْ حُسن الهند مع جمال الشام ومفاتن البلقان ونساء الخليل وبنات المنصورة لتكتشف أنه نقطة في بحر جمالها.

كان لها بياضُ كاميليا وملاحة نوال أبو الفتوح ورشاقة كريمان، صوت ماجدة وشفتا أنجلينا جولي وعُنق وردة وقامة نيكول كيدمان وعينا سعاد حسني وشعر كارينا كابور، ودقة حسن مديحة كامل وحاجبا إليزابيث تيلور، وأنف ليلى فوزي، وأذنا زبيدة ثروت، وابتسامة مريم فخر الدين، وأسنان فاتن حمامة. لو أخذت هذا كله وأدخلته إلى جهاز الحاسب وطلبت منه أن يركب صورة لكانت "إيدا".

اختزلت الجمال و"خرطها خراط البنات" فجمعت عود الفرنسيات وسيقان البولنديات وأرداف اللاتينيات وعيون السعوديات وغنج السوريات ورقة اليابانيات.

يا مَنْ كتبتَ "نشيد الإنشاد"[١] و"كاما سوترا"[٢] ويا عمر بـن أبي ربيعة ويا صاحب "الروض العاطر في نزهة الخاطر"[٣] ويا عزيزي نزار ويا "ولت ويتمان"[٤] و "د. هـ. لورانس"[٥] ويا كل من كتبتم عن المرأة وجمالها ووجهها وجسدها.. عُذرًا تعالوا وانحروا أوصافكم ونعـوتكم تحت قدمي هذه المرأة ذات البياض المتـورد والخـصر النحيـف والقامـة المديدة والبطن الضامر والصدر البارز المكتنز والشعر الممـوج، وهـاتين الساقين الطويلتين كفرعي النيـل والحـاجبين الهلالـين والأسـنان التـي تُشبه الأقحوان الأبيض، وهذا الأنف الروماني والشفة الـسفلى الرطبـة الندية الدسمة، وهذه الأذن الـصغيرة الملتحمـة والرقبـة المديـدة كعنـق الظبية أو كعمود من رخام الكرارة.

---

(١) جزء من العهد القديم.
(٢) نص هندي قديم يتحدث عن السلوك الجنسي لدى الإنسان.
(٣) للنفراوي.
(٤) شاعر أمريكي صاحب ديـوان "أوراق العـشب" والـذي أثـار جـدلًا بـسبب الأوصاف الجنسية.
(٥) روائـي إنجليـزي شـهير صـاحب "أبنـاء وأحبـاء" و"عـشيق الليـدي تشاتيرلي"...إلخ

(٣٥)

تكرَّرت زيارات منصور لـ "إيدا" في المستشفى، أصبح وجهها مألوفًا هناك يعرفه الجميع، أمست "إيدا" تنتظره وتتطلع إلى رؤيته وتجمل هيئتها إكرامًا لخاطره.

يجلب لها الطعام والشراب والملابس وكل ما يجعلها سعيدة، ابتاع لها خاتمًا فضيًّا عليه "مفتاح الحياة"، وألبسها إياه وكأنه يخطبها، ثم حكى لها عن قصة هذا الرمز الفرعوني، صحيح أنه ليس خاتم سليمان أو خاتم "بورشيا"[١] أو من النوعية التي ظهرت في أصابع "إليزابيث تيلور" و"باريس هيلتون"، لكنها تلقته بمعزَّةٍ خاصة في قلبها.

يعاملها برقة وحنان، يفهمها قبل أن تتكلم ويحاورها قبل أن تنطق، في المقابل تحسَّنت حالة "إيدا" النفسية كثيرًا وكفَّت عن الصراخ والبكاء وتورَّد وجهها وعادت لها صحتها وقوتها.

---

(١) راجع مسرحية "تاجر البندقية" لوليم شكسبير.

علَّمها منصور بعض الكلمات العربية، لديها قدرة هائلة على تعلُّم اللغات. حفظت قرابة مائة كلمة وأولها اسمه، يتفاهم معها أيضًا بلغة الجسد والإشارة كالصم والبكم، علَّمها الأرقام والحساب، أبدت استيعابًا كبيرًا وحُبًّا للأرقام.

أدهشه أن لديها معلوماتٍ غزيرة عن الحيوانات، لكن من أين حصلت عليها؟! عرف منها عن طريق الرسم أن الفيل إذا مات وهو واقف كالأشجار فإنه يظل على هذا الوضع بضع ساعات قبل أن يسقط، وأن رأس الثعبان المبتور يستطيع اللدغ مدة نصف ساعة من قطعه، وأن النعامة تظل قادرة على التكاثر حتى سن الخمسين، وأن الحصان يموت إذا قُطع ذيله، وأن العقرب يلسع نفسه إذا أحاطت به النيران.

أصبح منصور مُتيمًا بها، أعادت له عبق الحياة القديمة مع رانيا، روحها جميلة وجاذبة، ناهيك عن أن كل شِبرٍ فيها ينطق بأنوثة كاملة، طاغية، صارخة، ساخنة ومتفجرة. كل شبر فيها امرأة. تمنى منصور لو تَشمَّمها. تمنَّى لو كان لديه القدرة على تشرُّبها وامتصاصها.

(٣٦)

في شتاء ٢٠١٥ ضربت الإسكندرية نوة شديدة لم تُغلق "البوغاز" وحسب، بل كل نافذة وباب وشرفة. اقتلعت الرياح أعمدة الكهرباء التي تآكلت قواعدها واللافتات البائسة والأشجار المحنطة، وعربدت المياه في كل مكان بعد أن فشلت البالوعات المتهالكة في استيعابها.

أغرقت مياه الأمطار مستشفى المعمورة بعنابرها ومكاتبها، جاءت شاحنات لشفط المياه، استغلت "إيدا" فتح البوابة وانشغال الأمن ولاذت بالفرار.

دَقَّ هاتف منصور، كانت الدكتورة عنايات على الخطِّ وكان صوتها مأزومًا:

- دكتور منصور، هل تعرف أين يمكن أن نجد "إيدا"؟

- لا أفهم.

- لقد هربت من المستشفى في أثناء انشغالنا بتصريف مياه النوة.

- معقولة! كيف حدث ذلك؟!

- أرجوك ساعدنا لو استطعتَ. أنت تعرف المسئولية القانونية.

- هل هربَ أحدٌ معها؟

- لا. أغلب نزلائنا كأفيال السيرك لا يهربون، يبدو أن لديها سببًا قويًّا للهروب.

لم يعلق منصور، لكنه وعدها ببذل أقصى جهد للبحث عنها. هاله تشبيهها لنزلاء المستشفى بأفيال السيرك، مقاربة صادمة.

حين ينصبُّ الصيادون الكمائن لصغار الفيلة وينقلونها إلى السيرك يربطون سيقانها بالسلاسل، يحاول الفيل الصغير أن يُحرِّر نفسه ويكسر قيوده، لكنه يفشل، مع مرور الأيام يعتاد الفيل قيوده وسلاسله، حين يكبر ويزداد حجمًا وقوة تمكنه من كسر السلاسل لا يفعل، لأنه قد اعتاد الأسر واستمرأ القيد.

تطيَّر منصور بالخبر، أصابه بالحزن، فهل كُتب عليه أن يفقد كل من يحب؟ استسلم للأقدار أو قل لمجريات الأمور حين فَقَدَ رانيا؛ لأنه كان صغيرًا ومراهقًا وعديم الحيلة، لكن هذه المرة لن ينسحب أو يتراجع بسهولة. الحياة تحب المشاكسين والمستنفرين والمناطحين.

(٣٧)

بوصلة "إيدا" موجهة دومًا نحو الشمال، لا تحتاج لمن يدلُّها على طريق البحر، أخذت تطوي الأرض تحت قدميها في طريقها إلى الشاطئ. شعرت بآلام شديدة في ظهرها ومفاصلها وأطرافها، نزف أنفها، ولطخت الدماء ثوبها. لم تعد قادرة على التقاط أنفاسها فتوقفت بالقرب من "سان إستيفانو".

ظَلَّ البحر يغريها بالتقدُّم. ما إن اقتربت حتى بدأ بساط الأمواج يرفرف فرحًا كطائر يتعلم الطيران طالبًا منها أن تقترب أكثر وأن ترفع بيدها هذا البساط لتعاين خبيئته. وضعت قدميها المتورمتين في المياه المالحة، بينما راحت أمواج البحر تُفرغ ما في أحشائها من الأعشاب والرمال السوداء وكسر المحار و"سقط المراكب" على الصخور البائسة، بالرغم من كل شيء كانت سعيدة، سارت نحو الغرب غير عابئة بالأنواء والأجواء.

نظرت "إيدا" إلى سفينة غارقة في دهشة! قطعت هذه السفينة مسافات طويلة؛ وما إن تأهبت للوصول حتى اصطدمت بالصخور فمالت وتكسرت أجزاؤها، في أحيان كثيرة نشعر أننا قريبون من مقصدنا، لكننا في الواقع نكون بعيدين كل البُعد عنه! ما أشبه السفن "الشاحطة" بالإنسان حين تنتهي رحلة حياته مُقيَّدا مُكبَّلًا ثم تتداعى أعضاؤه وتتمرد وتموت موتًا بطيئًا.

تنهدت "إيدا" وهي تشخص إلى البحر، سَمِّه ما شئتَ: بحر الشام، بحر الروم، البحر الأبيض، من هنا خرج الفينيقيون يمخرون عُبابه، ومنه انطلق "هانيبال" يسطر أمجاد "قرطاجة"، هنا دخل "أوديسيوس" التيه في بحثه عن موطنه "إيثيكا"، هنا انطلق "جيسون" بسفينته "الأرجون" ينشد الفروة الذهبية، هنا أعلن سقراط أنه ليس رجل أثينا ولا رجل اليونان بل رجل العالم. هنا قال الإسكندر إنه سيبني مدينته، هنا جرى "أرشميدس" عاريًا وهو يصيح "وجدتها"! هنا نشأت أول "لينجوا فرانكا" حقيقية أو لغة مشتركة بين الشعوب.

أيها البحر المحبوس في قمقم الأساطير.. أيها البحر الذي بلع أحلام الملوك وذهب القراصنة وأمنيات العاشقين، أيها البحر الذي تهواه الشطآن وتعلم أن نهايتها على يديه، أيها المسحور والمحسور.. كم من القلوع حطمت؟! كم من المرافئ عطلت؟! كم من الأشخاص خطفت؟!

لو علم مختار بِك بأمر هروب "إيدا" لتباهى بحدسه عن تجسس المرأة. هكذا حدَّث منصور نفسه، وربما أيضًا اتهم منصور بتهريبها، لم يحتمل منصور هذه الأفكار. ارتدى ملابسه ومعطف المطر وهداه تفكيره أن يمسح الساحل بحثًا عنها.

لا يعرف لماذا، لكنه أحسَّ أنها ستقصد البحر، ما دامت تنوي الهجرة إذًا ستقصد البحر، يقول الدكتور عدلي إن لديها "نوستالجيا" أو أبابة إلى البحر أو شاطئه الآخر أو إحدى جزره.

انطلق منصور بسيارته من حي محرم بيه عبر شارع قناة السويس ومنها إلى البحر ثم اتجه شرقًا وعينه مثبتة على "الكورنيش".

راح يقول بصوت مرتفع وهو يضرب مقود السيارة بكلتا يديه: لماذا فعلتِ ذلك يا "إيدا"؟

لقد انتوى أن يأخذ إجراءات عملية بشأنها خاصة بعد أن كفَّ المستشفى عن أعطائها المهدئات، أضاعت كل شيء بهروبها، كان يخطط لتقنين وضعها لأنها ساقطة قيد، تحدث مع مسئول ووعده بالاهتمام، إذا تمَّت هذه الخطوة يمكنه الزواج بها، على أي حال تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن.

(٣٨)

كانت الرؤية شبه منعدمة بسبب هطول الأمطار الشديدة، لم تستطع مسَّاحات السيارة إزاحة كل هذه المياه، كان صوت الرعد مُخيفًا وراح البرق يشرخ لوح الأفق البعيد كاشفًا هنا وهناك عن عددٍ من السفن العاثرة التي تنتظر دخول الميناء.

وصل منصور إلى قصر المنتزه فأخذ دورانًا للخلف، أصبح البحر الآن على يمينه ولصيقًا به، بينما راحت الأمواج تقفز فوق الحاجز الأسمنتي بقوة، خفف من سرعة السيارة وأخذ يدعو الله أن يجدها.

عند شاطئ كليوباترا لم يصدق عينيه حين وجدها تقف على الصخور تخاطب البحر: "قد سألت البحر يومًا: هل أنا يا بحر منكا؟ هل صحيح ما رواه بعضهم عني وعنك؟ أنت يا بحر أسير آه ما أعظم أسرك. أنت مثلي أيها الجبار لا تملك أمرك. فمتى أنجو من الأسر وتنجو؟ لست أدري."[1] وقفت هناك تغريها السرينات بالتقدم.

(١) إيليا أبي ماضي.

كانت الإسكندرية تمر بأنواء "الـشمس"، اسـم عـلى غـير مـسمى وملمح متناقض ككل شيء في مصر، أبت الشمس أن تخرج من مكمنها ذاك اليوم، لكنها أطلت فجأة مشرقة وزاهية لا مـن الـسماء، لكـن مـن شاطئ كليوباترا.

صَفَّ منصور السيارة على عجلٍ وهُرِعَ باتجاه "إيدا"، نعم إنها هي، لم يشعر منصور إلا و"إيدا" بين ذراعيه يحضنها، استسلمت له ودفست رأسها في صدره، لو لم يكن متيقنًا أن أحمد شوقي كتب الأبيـات الآتيـة لمدينة "زحلة" لقال إنه كان يقف معهما على الشاطئ:

لم أدرِ ما طيب العناق على الهوى حتى ترفَّق ساعدي فطواكِ

أحس أنهما كيان واحد، روح واحدة في جسدين أو قل حتى جـسد واحد، مشهد يستدعي قول بشارة الخوري "لو مر سـيف بيننـا لم نكـن نعلم، هل أجرى دمي أم دمك."[١]

خلع منصور معطف المطر ووضعه عليها وهـو يقـول: "لم فعلـتِ ذلك يا إيدا؟! ألا تعرفين أني أحبك وأني لا أتحمل العيش بـدونك؟" لم تفهم كلام لسانه بطبيعة الحال، لكنها فهمت كلام قلبه. ضمَّها وضمَّته.

أشهى ما في الحب العناق، حـين نتعـانق تبعـث أجـسامنا برسـائل حرارية لا تفهمها إلا الأجـساد المولعـة بـالغرام، حـين نتعـانق تُرسـل أرواحنا إشارات خفية لا يفكُّ شفرتها سوى القلوب المُضمخة بالعش،

(١) "أضنيتني بالهجر"، غناها فريد الأطرش.

العشق يحرك الكون، والعناق هو وقود الحب، لا عتق من العشق، ولا انفكاك من العناق، حين تعانق تتخلى عن كونك واحدًا إلى نصف يُكمل نصفًا آخر تخلى عن كونه واحدًا.

لَمْلَمَ منصور روحه المبعثرة، لَمْلَمَت "إيدا" أشلاءها، ذاب فيها وانصهرت فيه، امتزج بها وفنيت فيه، توغَّل فيها وتورطت فيه، حَلَّ فيها وسكنته، تقمصها وشفته، باح لها وناحت له، عصر أضلاعها وسحقته. حقًّا العشق وقود الكون، تمنى لو التصق جلده بجلدها، تمنى لو سكنها وسكنته. كان منظرهما والبحر يهدر خلفهما أشبه بآدم وحواء في مستهل الكون.

كان المشهد برمته كئيبًا وبدا كلوحة صوفية للطبيعة التي تقهرنا برياحها وغيومها ورعودها، وحدهما وقفا هناك والكون كله لهما، أبرقت السماء وكأنها تلتقط صورًا لهما.

حين تراهما تشعر أنهما توأم ملتصق من الأمام، تشعر أنهما يتشاركان الحشايا والعظام والأنسجة والدماء، يمكنك فصل أصعب الأشياء مثل الأجنة والألوان؛ يمكنك فصل المواد بالترشيح والتقطير والمغناطيس، لكنك لا تستطيع أن تفصل أرواح المتعانقين، هناك أشياء لا يمكن تنصيفها أو قسمتها أو فصلها.

قبَّلته قبلة محبة وشُكر لأنه أتى للبحث عنها، وقبَّلها قبلة اختصرت شوق السنين، كان طعم القبلة أشهى من اللبن الجاموسي الدافئ في الشتاء. وضعت شفتها السفلى بين شفتيه فأطبق عليهما حتى خالط ريقه

ريقها وراح يمتص رحيق الحياة، ما ألذ عناق الـشفاه! مـا هـذه الـشفاه المترعة بالكرز؟! لا بد أن عسل بنها أو "كورسيكا" يُستخرج مـن هـذه الشفاه. لو أن معه منديل "فيرونكا" لطبع هذه القبلة عليه وعـاش عـلى ذكراها حتى آخر نفس في صدره.

(٣٩)

لكل شيء وقت: "وقت للولادة ووقت للموت؛ وقت للغرس ووقت للقلع؛ وقت للبناء ووقت للهدم؛ وقت للضحك ووقت للبكاء؛ وقت للرقص ووقت للنوح؛ وقت للعناق ووقت للفراق؛ وقت للكسب ووقت للخسارة؛ وقت للسكوت ووقت للكلام."[١] وقت لليقظة ووقت للنوم؛ وقت للكسر ووقت للجبر؛ وقت للفرح ووقت للترح؛ وقت للأمل ووقت لليأس؛ وقت للخصوبة ووقت للجدب؛ وقت للهزل ووقت للجد؛ وقت للدَّعة ووقت للكدح؛ وقت للحُبِّ ووقت للحرب.

في هذه اللحظة وكل لحظة هناك من يقرأ، هناك من يكتب، هناك من يبني، هناك من يحلب، هناك من يحصد. هناك من يغزل. في كل لحظة على وجه البسيطة هناك من يفعل شيئًا طيبًا.

---

(١) من سفر الجامعة، الإصحاح الثالث.

في هذه اللحظة تاب مذنب وألحد مفكر وتعبد ناسك وتضرع خاطئ وسُجن بريء وزُفَّت عروس وتأوَّه مسكين وشبع جائع وعشق فتى وتوجَّع مريض وتاه طفل وترملت زوجة وعاد مسافر واهتدى حيران. في هذه اللحظة أُطلقت تنهيدة وخُطت تعويذة وغُنت ترنيمة وأُطلقت تغريدة. في هذه اللحظة أقلعت طائرة وانقلبت سيارة ووصل قطار وتصدَّع منزل وصودر كتاب وطُبعت صحيفة ووصل خطاب وتدفق بئر ونزل غيث.

في هذه اللحظة التقى منصور بنصفه الآخر والتقت "إيدا" بمنصور. أوقف السيارة على عجل وهُرع يبحث عن أي بقعة مسقوفة يحتمي بها من وابل الأمطار والسيول الجارفة؛ ثم تسحب إلى داخل البناية التي يقيم فيها، انتحرت نخلة بالقرب من المدخل وانهار جذعها على الأرض، من حُسن الحظ لم يشاهده أحد وهو يصعد بـ "إيدا" إلى شقته، الكل في بيات شتوي. أخرجَ سلسلة مفاتيحه، لا يدري لماذا يحتفظ بكل هذه المفاتيح التي بعدت أبوابها وتغيرت؟! لماذا يحتفظ بمفاتيح لا تفتح؟! لماذا يحتفظ بمفاتيح ليس لها أبواب؟! المفتاح الأخير دائمًا هو الذي يفتح. حقًّا.. حياتنا كلها بضعة مفاتيح، لكن ليس بينها مفتاح السعادة الذي يجب أن تبحث عنه أو تصنعه أنت بنفسك.

ها هو المصعد المتآكل يخلخل الهواء في رحلته الشاقة عكس الجاذبية. كانت قطرات المطر ترشح وتتساقط منها، لطالما استقل منصور هذا المصعد مُطلقًا الزفرات على مرآته.

لا يدري ما علة وجود مرآة في المصعد؟! هـل مـن أجـل أن يتـأنق العائدون إلى الدور والزائرون لها؟! هل لخلق نوع من الفسحة المكانيـة لأن المصعد ضيق نوعًا ما؟ هـل لأن انطبـاع صـورة المـرء في المـرآة قـد تُؤنس وحدته؟ على أي حال كان يستعين بها لفحص أسنانه. يـروق لـه أيضًا إخراج لسانه أو تحريك حاجبيه ومنخاريه وشفتيه أمامهـا بطريقـة عبثية وبلهاء!

لا يحب الانتظار ولا يستسيغه، لكنه يُفرض عليـه دائـمًا، ينتظـر في مجمل أيامه الفرحة التي تاهت منه. دأب على مراجعة الكثـير مـن أمـور حياته حين يكون حبيس المصعد أو دورة المياه. يرتدي عبـاءة الفلاسـفة في هذا الصندوق المعدني العجيب، يتحول إلى "هاملت" في حيرتـه بـين أن "نكون أو لا نكون".

يكتشف العديد من الناس أخطاءهم داخل المصعد ويقرر آخـرون ماذا يريـدون بالـضبط خاصـة إذا تعطـل بهـم، حـدث هـذا في الفـيلم المصري "بين السماء والأرض"، والأمريكي "الديك بريـد" حـين أدرك "شارلي"، عامل المصعد البسيط أنه يريد أن يُمضي ما تبقى من عمره مع فتاته: "إذا قُدر لي أن أخرج من هنا فسوف أتزوج أوريت فأنا أحبها. لا أدري ما الذي منعني من القيام بذلك؟!" ردد منصور: "سوف أتـزوج إيدا فأنا أحبها." أفاقت "إيدا" على صوت ترديد اسمها ثم انهارت على كتفه.

الأشياء التي تأتي متأخرة تكون جميلة؛ نفـرح بحـمام سـاخن حـين نظل فترةً بين الأتربة والعرق، نفرح بالفراش حين يحلُّ بنا التعب؛ نفرح بعودة الكهرباء حين نجلس فترة طويلة في الظلام، ونفرح بالطعام حين يستبد بنا الجوع.

أتدري ما أجمـل شيء في الحيـاة؛ أجمـل مـن ملايـين الـصور التـي رُسمت والتُقطت وأبلغ من ملايين القصائد التي دُوِّنت وكُتبـت وأرق من ملايين الألحان التي عُزفـت وغُنـت؟ فتـى وفتـاة يتعانقـان، شـابٌّ وشابة متحابان، رجل وامرأة عاشقان.

(٤٠)

بطبيعة الحال سقطت "إيدا" مريضة، أُصيبت بـبرد شـديد، ناولهـا منصور مناشفَ وبعضًا من ملابسه، وأعطاها أدوية، وصنع لهـا حـساء ساخنًا.

طلبت منه ألا يقبلها في الفم حتى لا ينتقل البرد إليه، لكنه لم يلتفت إلى طلبها فلعق لعابها واستنشق رائحة أنفاسها التي تُشبه نعناع "حائل" ولحس كوب الليمون وراءها وأخذ العلكة من فمها لفمه، عندما تحـب بإخلاص تذوب في محبوبتك وتشعر أنكما تتقاسـمان الـرئتين والكليتـين والعينين والأذنين..

ما إن تناولت إيدا طعامها وأخذت الدواء وأحست بدفء الغرفـة والفـراش والغطـاء حتـى راحـت في نـوم عميـق كالأطفـال. ظهـر "سيلوت" جسدها في مقابل النور الخافت القادم من خارج الغرفة، مـا أجمل "كنتورات" جسمها! أهذا هو الجمال النائم؟ نعم هذا هـو الجـمال

النائم والجمال الحالم والجمال الآسر. جميلة وهي نائمة وجميلة وهي مستيقظة.

ظَلَّ منصور بجوارها، ظَلَّ الليل كله يرقبها. لسان حاله يقول: "ليتني أسافر في خطوط كفيك، ليتني أعيش بين رموش عينيك، ليتني أبحر في نهر ثدييك! مَن المحظوظ الذي سيتسلق هذه المنحنيات الصعبة والطبيعة البكر الواعدة؟ مَن المُبخت الذي سوف ينعم بهذا الجمال؟ مَن ذلك السعيد الذي سيصحو من نومه على هذا الوجه الملائكي؟ مَن الشخص الذي سينعم بدفء أنفاسها ورائحة شعرها وطراوة جسدها ونعومة بشرتها الشمعية؟"

أغنية وأمنية وأمسية.. جنية وشتوية ومرثية.. هذه هي "إيدا".

كانت حرارتها مرتفعة، صنع لها كمادات، كانت تخرف بكلمات غير معروفة، لم يميز منها سوى كلمة "إيدا". شيء غريب! لماذا تنطق باسمها؟ لماذا تنادي على نفسها؟ لم يشك منصور لحظة أن كل هذه الأسرار سوف تنجلي وتنكشف.

أحضر المسجل ليأخذ عينة من كلامها وهي نائمة، النوم يخرج الأسرار كالمخدر تمامًا، من حسن حظه أن اليوم كان الخميس، لديه عطلة نهاية أسبوع طويلة حتى يوم الأحد.

أخذ يسأل نفسه: لماذا يرتكب هذه المخالفة؟ لم ينتهك القانون طيلة حياته، لكنه عاد وألقى باللائمة على جمود هذه القوانين. عاد ينظر إلى "إيدا" وهي نائمة كالملاك. تخيلها زوجة له تشاركه الفراش.

جميل أن يكون لك شريكة تسكن إليها في هذه الحياة أو على الأقل في هذه الأيام الباردة؛ ما أقسى أن تعيش دون مؤنسة في هذه الدنيا المُبكية. جميل أن يكون لك امرأة تهتم بأمرك وتعرف كل شيء عنك؛ تعرف أنها تنتظرك حين تغيب عنها؛ تحنُّ وتشتاق إليها. تسكن إليها، تؤنس وحدتك وتنتزع الألفاظ من فمك، تطفئ النار في جسدك، وتنفض الحسرة عن قلبك.

امرأة تتكلم معك وتضحك وتُضحكك، تغسل ملابسك وتشاركك طعامك وتدلك قدمك، تعيد توزيع الأثاث وتعلق صورًا مبهجة على الحوائط. تجري وراءها وتملص منك، تستحم معك، تشدُّك من شعرك وتغرس أظفارها في ظهرك. تعضك وتقرصك، تنام على صدرها وتتوسَّد فخذيها وتمشط لها شعرها، تمشي عارية في المنزل، تقيس أمامك ملابسها الداخلية، تقول لك نكتًا قبيحة.

ليس هناك أجمل من أن تتقاسم الحياة مع أنثى، الحياة بكل تفاصيلها، حلوها ومرها، حتى الأشياء البسيطة التي نفعلها كل يوم تُصبح مختلفة مع شريكة، حتى الشجار له طعم مختلف سواء تشاجرتما حول مصروفات البيت أو من يستأثر بالوسادة الإضافية على السرير ليضعها بين فخذيه.

باختصار ما أجمل أن يكون هناك بيت ورجل وامرأة، يبتسم أحدهما فيضحك الآخر؛ يتوجع أحدهما فيبكي الآخر؛ يخطئ أحدهما فيبادر الآخر إلى لصق التهمة بنفسه؛ يغني أحدهما ويرقص الآخر؛

يأكل أحدهما فيشبع الآخر؛ يشرب أحدهما فيرتوي الآخر؛ يمرض أحدهما فيعتل الآخر؛ يسأل أحدهما ويجيب الآخر.

ما قيمة الحياة وما قيمة كدحنا وسعينا إن لم يكن فيها زوجة وأطفال وحياة مستقرة وطعام ساخن وفراش دافئ؟

أطلق منصور زفرة مستطردًا: "ثم إني أريد طفلًا، طفلًا أداعبه؛ طفلًا يحمل لقب أسرتي البائسة؛ يُنهي حالة السأم والضجر التي تتملكني؛ أضمه لصدري؛ أقبله في فمه؛ أشمُّ رائحته؛ يملأ البيت صراخًا وضحكًا؛ يمتطي ظهري؛ ألعب معه؛ أتلقفه من فوق المقاعد؛ أشتري له لبس المدرسة؛ أُعلِّمُه العوم وركوب الدراجات، أستعيد البراءة من وجهه الملائكي، أربت على ظهره ليتجشأ بعد رضعته، أُهدْهِدُه يوم فطامه، أُحدِّق إلى كفيه وأصابعه الصغيرة، أتوارى خلف المقعد لأباغته، أُقبِّل خديه المفعمين بـ "الكولاچين"، يقفز قلبي حين يقف على قدميه وينقلهما لأول مرة، أُداعِبُه لينسى آلام التطعيم، أفشل في الإجابة عن أسئلته المحرجة، آخذ الفأل من فيهِ وأُكوِّن معه بيوتًا بـ "الميكانو" وألعبُ معه الغماية.

أريدُ طفلًا لا يكبر. يسألك: "إلى أين أنت ذاهب؟ متى ستعود؟ هل يجب أن تذهب؟ خذ نصف مصروفي اليومي وابقَ معي؟ أنا بحاجة إليك، إلى حضنك الدافئ. إلى لهوك معي، إلى حدوتة قبل النوم التي تأخذني فيها لعالمٍ من السحر والخيال، أريدُك أن تعلمني العد على

أصابعي وحـروف الأبجديـة، أريـدك أن تعلمنـي كيـف أربـط سـيور حذائي، أريد أن أكتشف العالم معك."

وعند هذا الحد غلب الكرى منصور فنام على المقعد بجوار "إيدا"، لكنه كان قرير العين، أخيرًا ضحكت له الدنيا، لا يصدق أنـه سيقتـسم ما تبقَّى من حياته مع هذه المخلوقة الرائعة، حتى آلام المعدة التي تهاجمه في المساء لم تأتِه ذاك اليوم.



(٤١)

بحلول مساء السبت كانت "إيدا" قد تعافت، في صباح يوم الأحد استعد منصور للذهاب إلى الجامعة، أجرى اتصالًا مع الدكتورة عنايات ليدرأ الشك عن نفسه، قالت له إنه جرى تحقيق مع فرد الأمن ووقع عليه جزاء إداري، وأُبلِغت الشرطة.

أضافت أنه في حالات كثيرة لا يحدث أكثر من ذلك ولا تهتم الشرطة بالبحث عن الحالة إلا إذا كانت تتبع العنبر الجنائي. شوارع مصر مترعة بالمرضى النفسيين وأصحاب الطريق ولا أحد يعيرهم اهتمامًا خاصة لو كانوا مثل "إيدا" مقطوعين من شجرة ولا يسأل عنهم أحد.

شرد منصور وهو يؤكِّد للدكتورة صِدْقَ كلامها مع الأسف، شاهَدَ منذ فترة قريبة رجلًا ممَّن يسمونهم "أصحاب الطريق" يلبس جوالًا مكتوبًا عليه "أرز فليبيني"! كان الرجل رث الهيئة، أغبر الشعر، حافي القدمين. مشى الهُوينى في اتجاه غرفة محولات الكهرباء ثم دخل

واختفى داخلها. اعتاد المسكين النوم هناك طلبًا للدفء مفترشًا بضع إشاعات طبية لقلوب مريضة وعظام مكسورة حصل عليها من مركز طبي. من قرابة شهر عثرت الشرطة على آخر يتدلى كسمكة فسيخ منتنة من حبل ثُبت بإحدى عوارض كرة القدم في ساحة شعبية مهملة وخلفه شرفات متهالكة تحوي أربطة من البصل الأحمر عُلق على حوائطها.

إياك أن تظن أن المدينة، أيًّا كان اسمها، سترثى لحالك إذا اختنقت في شوارعها أو سقطت من أبواب حافلاتها أو وقعت في إحدى بالوعاتها. إياك أن تصدق أنها ستهتم بصراخك أو تحفل باستغاثاتك أو تلتفت لتأوهاتك.

كل ما يمكن أن تمنحك إياه المدينة عندما تموت جوعًا وكمدًا هو متر أو يزيد قليلًا بجوار سور من أسوارها. وتأكد أن أحدًا لن يشعر أنك ميت حتى تتفسخ أعضاؤك وينتفخ بطنك وتخرج رائحتُك.

نفوس معقدة من البشر، جمركة للمشاعر وفساد للنظم، تلك هي المدن.

أنهت الدكتورة المكالمة معتذرة لمنصور عن عدم تمكنه من إنهاء البحث. جاء رده:

- أبدًا يا دكتورة. أشكرك على إتاحة الفرصة لي بالجلوس معها غير مرة.

- تحياتي لك يا دكتور منصور.

- ولك يا دكتورة.

(٤٢)

تغير طعم الأيام مائة وثمانين درجة. شعر منصور أنه يطير فوق السحاب من شدة الفرح والغبطة والنشوة.

في ظاهرة تحدث بالمعدل نفسه الذي يدور به كوكب "زحل" حول الشمس أو معدل ظهور النمر العربي، أصبح منصور ينتهي من عمله ويُهرع إلى البيت ليرى "إيدا" ويأكل من يديها ويسعد بصحبتها.

علَّمته أشياء جميلة: لعبة "السيجا" وكيف يشكل مهد القطة. شبكت "إيدا" خيطًا لينًا بين يديها ثم رفعته بمستوى منصور. تجمَّد الأخير مكانه وهو ينظر إلى أصابعها الدقيقة الجميلة. قرَّب يديها من صدره ممسكًا بهما ثم طبع عليهما قبلة.

أَسَرَّ منصور بتطورات ما حدث كله للدكتور عدلي، توجَّس الأخير خيفة. أخبره منصور أنه يشعر تجاهها بعاطفة نبيلة ويريد الزواج بها.

بالنسبة للبحث لم يبقَ غير معمل الـصوتيات، لكـن مـن الـصعوبة بمكان جلب "إيدا" إلى الجامعة حتى لا يُفتضح الأمر. أضاف منصور:

- هناك أيضًا مشكلة أخرى.

- ما هي؟

- الدكتورة زينب، فهي صديقة للدكتورة عنايات.

- دَعْ زينب لي ما دام أحد لم يتعرض في مستشفى المعمورة للأذى الشديد.

- حسن. جيد. إذن كيف سيتم الأمر يا دكتور عدلي؟

- نحضرها متخفية. نُغيِّر شكلها وملابسها.

- فكرة، لكن أرجو ألا تتوتر "إيدا".

- هذه مهمتك، اسمع يا منصور هذا بحث غير عادي وسـيكون فاصلًا في مسيرتك الأكاديمية.

- أفكِّر أحيانًا في أن أترك البحث برمته.

- لِمَ؟

- دكتور، هل تذكر هذا الملك الإنجليزي الذي تنازل عن عرشه من أجل فتاة أمريكية؟

- نعم. وهناك أيضًا من ضحَّى بالمال والشهرة من أجـل الحـب.

أظنني أفهم ما تريد قوله، لكن مـا الـضير في أن تقـوم بكلـيهما: تتـزوج المرأة وتكمل البحث. أتخشى أن تظن "إيدا" أنك تستغلها؟

- بالضبط.

- إذن أعود وأقول لك هذه مهمتك.



(٤٣)

مرت الأيام ومنصور يُرجِئُ موضوع العمل. أصبحت "إيدا" شيئًا مهمًّا في حياته، بيته أصبح نظيفًا ومُرتَّبًا بفضلها. اشتهاها، لكنه ظلَّ يُؤجِّج الرغبة حتى جاء يوم ضعف فيه أمام جمالها.

عبر زجاج الشرفة شَقَّ ضوء القمر طريقه بصعوبة بين الغيوم ساقطًا على وجهها الجميل بشكل عجيب، شعر منصور أن المذنبات والشهب تنطلق حول وجهها كالألعاب النارية في احتفال بهيج.

جلسا يشاهدان التلفاز، عقل "إيدا" بسيط غير مُلوَّث بسخافات هذا العالم. لا تتعامل جيدًا من تكنولوجيا العصر، وتبدي انبهارًا بها، لكن منصور أخذ على عاتقه أن يزيل هذه الغرابة ونجح إلى حَدٍّ كبير.

راح يقلب قنوات الأفلام في التلفاز، توقَّف عند قناة تعرض فيلمًا عن "لوسي دف جوردن" واشتهائها لخادمها المصري "عمر" الذي نام مع خادمتها "سالي" وأنجب منها ولدًا دفعه لزوجته السكندرية

"مبروكة" لتربيته. غير منصور القناة كان هناك فيلم آخر لفتى زنجي أُلحق بقصر الخليفة ظنًّا منهم أنه مخصي وتتطور الأحداث، مشاهد ساخنة، التلفاز يتآمر ضده اليوم، قلَّب القنوات للمرة ثالثة فوجد فيلم "يوم من عمري". سرح قليلًا في هذا الصحفي الذي ضحى بالخبطة الكبيرة كما يقولون من أجل خاطر الفتاة التي أحبها، استخدم "الريموت" للمرة الأخيرة فاستقر على فيلم "عروس النيل" والجملة الشهيرة فيه "عودي يا هاميس".

دقَّ قلب منصور بشدة، بل قُلْ وَقَعَ في قدميه فسارع بإغلاق الجهاز، ثم احتضن "إيدا" قائلًا: "لا تتخلي عني يا إيدا. كنتُ بائسًا قبلك، تخبطتُ كثيرًا، عمري صقيع وجدب دونك، ضَمِّدي جروحي، دغدغي أيامي، هزي كياني، دعيني أَنَمْ بين أهدابك، بُوحي لي بأسرار الحياة، أنا العدم دونك، حصاد الهشيم، ضيعة السنين، كومة قشٍّ، خرقة بالية، لنتزوج زواج آدم وحواء. الزواج في النهاية إيجاب وقبول."

تقدَّم منصور من "إيدا" في خجلٍ، قبَّلها وعانقها فأحسَّ بقلبه ينفجر. شعر بأنفاسه تتلاحق وقلبه يُدقّ بشدة كقلب القنفذ.

أبى ثدياها الناهضان السكون فدأبا على الخروج من بلوزتها مع كل حركة وانحناءة كحمامتين تتعلمان الطيران، لو رأى "نيوتن" هذين النهدين النافرين لراجع قوانين الحركة برمتها، فتح زر بلوزتها فظهر الطود العظيم، حَسَمَ أمره وقرَّر أن يعبره إلى أرض التيه والفيروز، ما

أجمل نهدي "إيدا" وهما يطوحان تحت قميصها المغري كموج البحر أو كتوابع الزلازل!

أجلسها على حجره ومص أصابع كفِّها التي تشبه حلوى "العسلية" وأصابع قدميها الفرعونية التي تشبه "الكستبان".

خلع ملابسها فلفحته حرارة جسدها التي تذيب ثلوج جبال "كليمنجارو". كان لدنًا ورخوًا وساخنًا كخبزة "تميس" خرجت لتوها من فرن أفغاني. انكشفت سرة بطنها فبدت عميقة تشبه دوامة "كاريبديس"[1].

هالَه نقاءُ جسمها، كانت ناصعة كحمامة بيضاء أو كحورية من حور العين اللاتي يُرى بياضهن من وراء سبعين حُلة، تصبَّب عرقًا وهو يثبت نظره على إبطها البض وسمانة رجلها البيضاء وتلك الربلة المبطرخة التي تشبه بطن طائر البطريق.

لم يكن في جسمها ندبة أو وحمة أو شامة أو حتى شعرة، كان جسدها مجلوًّا كالعروس يوم زفافها، بين ضفتي ظهرها يجري نهر الحياة كرخام إيطالي أبيض غسله المطر.

حَلَّ جدائلها فانسدل على كتفيها طريق الحرير. فعلًا الجمال منحة وهبة من الله، كانت هذه الفتاة أجمل من رأت عيناه من النساء، أمضى

(١) بين إيطاليا وصقلية.

معها أمتع ساعتين في حياته قضى نصفهما تقريبًا في تقبيل شـفتيها اللتـين تقطران شهدًا في حلاوة شمام باسوس ومشمش العمار وتين السلوم.

أدرك ساعتها أن أيامه سوف تحلو، أبحر لسانه كـسمكة "بربـون" في فمها، بعد أن أفرغ فيها شوقه نام على صدرها لبعض الوقت، تحملت ثقل جسمه وحرارة أنفاسـه دون تـبرُّم، لم تـشأ أن توقظـه، بـل راحـت تداعب شعره بأناملها السحرية وتنظر إليه في محبة وعشق.

أحبَّ كل خلية فيها وكل نسيج من أنسجة جـسمها وكـل جُـزيء من لعابها وكل نفس يخرج من صدرها وكـل حليمـة في لـسانها؛ أحـبَّ شرايينها وعضلاتها وأوتارها وأوردتها وكل عظمة من عظامها؛ أحبهـا كلها. جلس بين فخذيها البضين الناعمين ثم عاود دخول المغارة.

(٤٤)

فعلًا نجد الحب مصادفةً حين لا نفكر فيه. اخترتُكِ أنتِ يا "إيدا".

ما الحب؟ ما ذلك الكائن الذي يدغدغ ويُهدْهِدُ أحاسيسنا ويسحر عيوننا ويهزُّ وجداننا؟ ما هذا المخلوق الرقيق الذي يهذب مشاعرنا ويجمل حياتنا؟

عندما نحبُّ بإخلاص نُغلق على من نحب أهدابنا وأذرعنا وقلوبنا، ثم نُطوح بالمفتاح ليبقى الحبُّ سرمديًّا.

نظرت "إيدا" إلى منصور بمحبةٍ، لسان حال مَن يراها يقولُ: لا تتركني. قل إنك لي للأبد. قبِّلني وأنا نائمة، حين تستيقظ في الصباح عانِقني، بعد تناول قهوتك دعني أرشف بقاياها من شفتيك، قبل أن تغادر المنزل عانِقني من جديد، اتصل بي لتسألني عن أحوالي، وعن طعام غذائنا، لا تغلق الهاتف دون أن تقول لي كم تحبني، تشوَّق لرؤيتي، اشترِ لي وردًا، عُدْ سريعًا إلى البيت، عُشك الدافئ في

انتظارك، شاهدني كل يوم امرأة جديدة، تفاجأ حين أفتح لك الباب بملابس قصيرة، تكلم معي، أطرِ طعامي وعطري، أطعمني بيدك، ساعدني على ترتيب البيت، شاهد معي المسلسل الذي أحبُّه، اسألني عن أيام حيضي، ومتى ستنتهي؟ اكتشف كهوفي، عاملني كأميرة، افتح لي باب السيارة، قل لي كم أبدو جميلة، قل لي إنني كل ما تبقى من الإناث في الكون، قل لي إنني الوريثة الوحيدة لبنات حواء، قل لي إنني أمُّك وأختك ورفيقتك وعشيقتك، قل لي إنك تكتفي بي ولا تكتفي مني، أخبرني أنك سعيد معي، وأنني هديتك من السماء، حافظ على أسراري، احترم خصوصياتي ودموعي وخلوتي ونقاط ضعفي، تجاوز عن حماقاتي وجنوني، احتوِ أيامي وأحلامي. دغدغ مشاعري، اصطحبني للسينما، ابتَعْ لي الشيكولاته التي أحبُّها، قل لي إننا سنلفُّ العالم معًا، احجز غرفة في فندق ساحلي لنقضي فيه عيد الحب، ابتَعْ لي قرطًا متدليًا، كُن كريمًا معي، قُص أظفاري وشذِّبها بالمبرد، ساعدني في ترقيق حاجبي وإزالة الشعر الزائد عن جسمي، اختر قميص نومي الليلة وكل ليلة، راقصني، داعب رقبتي وأصابع قدمي وشحمة أذني، أسمعني أجمل كلمات الغزل، هل يروق لك تصفيف شعري الكستنائي؟ امتدح خصري وملمسي وبشرتي وعيني وساقي وقدمي، قل لي إنك تحب هذا النمش في خدي، وهذه الوحمة في حِجري، قل لي إنني متجددة كل يوم، دَلِّلني، هَدْهِدْني، زلزل كياني، غِرْ عليّ. خذني في حضنك. أجلسني على حجرك، اجرِ ورائي في البيت متوعدًا. اصفعني على مؤخرتي. ابحث عني حين أغيب عن وجهك، سِر في أثري، افتخر

بي، قـدمني إلى أصـدقائك. قـل لهـم إننـي لوحتـك وقـصيدتك، وأني ملهمتك ومحبوبتك، عدني ألا يطول خصامنا. تقبَّـل عيـوبي، اقبلنـي في حياتك كما أنا، غازلني أمام أهـلي وأهلـك، أرسـل لي خطابـات حُـبٍّ. اختر لي ألواني، شاهد معي صورنا، ذكرني بـما دار بيننـا، قـل لي إننـي لم أتغير، قل لي إن وزني لم يَـزِد، وأن صـدري مـا زال مرتفعًـا، وأني رطبـة ومغرية، قل لي إن قدي ممشوق وبطني مشدود، قل لي إنني لا أكبر، وأن جمالي يزيد بمرور الأيام، تطيَّب مـن أجـلي وخَفِّـف شـاربك واسـتحم معي، قل لي نكتة قبيحة، اطلب مني أن أغير ملابـسي أمامـك، تـأملني وكأنك تراني لأول مرة، بعد أن تقـضي وتـرك منـي عـانقني، والآن نـم قرير العين يا حبيبي، لكن لا تَـنْسَ أن تقبلنـي قبلـة المساء، وأن تـضع فخذك بين فخذي ورأسي على صدرك."

ونظر إليها منصور متيمًا ولسان حاله يقـول: "أنـا رجلـك وأبـوك وأخوك وصاحبك. أنا أميرك وفارسك. أنا ظهـرك وسـندك وملجـؤك ومخبؤك. أنا ملاكك الحارس ومستودع أسرارك. قولي إنني كل هـؤلاء. قولي إنني الرجل الوحيد في عالمك. إنني ماؤك وإكسير حياتـك. إننـي دنيتك وجنتك. أخبريني أنني حبيبك وعشيقك. أخبريني أنـك مغرمـة بالجلوس والتحدث معي. انتظري عودتي. افهميني من نظـرة واحـدة. قولي لي كم أنا رومانسي وعـاطفي! امتـدحي خلقـي ولبـاقتي وثقـافتي وأنـاقتي وبـساطتي. أخبرينـي أن أفكـاري تبهـرك. أخبرينـي أننـي مكافأتك. أخبريني كم أنا غيور وشهم! لا تغضبي من سكوتي وصمتي

فوقتها أكون أفكر فيك. لا تغضبي حين أنظر إلى امرأة عابرة فإنما أفعل ذلك أحيانًا لأعرف قيمة ما لديَّ. لا تنزعجي حين أجفل عن معاشرتك فإنما أُؤَجِّجُ الشهوة لأستمتع بك. اعذريني حين أغلق جفني حين أحملق فيك فنور وجهك يرهق عيني. شاركيني اهتماماتي وأحلامي وآمالي وطموحاتي. تجاوزي عن هنَّاتي. مَشِّطي شعري. احلقي لي ذقني. اعقدي رابطة عنقي. أخبريني بما يجيش في صدرك. شاركيني فطوري وقهوتي وسيجارتي. اشترِ لي الأشياء التي أحبُّها. ذكريني بالأغنيات التي أعشقها. اختاري لي ملابسي. أخبريني كم أنا ممتع في الفراش! أخبريني أنك سعيدة معي، وأنه لو عاد الزمن للوراء لاخترتِ العيش بجواري. أخبريني كيف كنتُ رقيقًا معك يوم غشيتك. كيف أشعرتك بأنوثتك. كوني لي يا حبيبتي، لي وحدي".

(٤٥)

لمسَ منصور من "إيدا" بعض الغرابة في عاداتها وسلوكها، لكنه ظنَّ أن هذا أمر طبيعي بما أن المرأة لا تنتمي لهذا العصر أو على الأقل لا تتحدث بمفرداته، لكن المثير حقًّا أنه عايَنَ منها تصرفاتٍ غير عادية، وأيقن أنها تمتلك قُدراتٍ خارقة.

صحيح أنها لا تأكل الزجاج ولا تمشي على النيران ولا تشد سيارة تبلغ طنين بأسنانها ولا تدفع المسامير في جلدها، لكنها تأتي بأمور عجيبة: تتحدث مع القطة "مانو" وبينهما علاقة عجيبة، تقوم بأعمال البيت في وقت قياسي؛ لديها طاقة "كهروستاتيكية" هائلة يشعر بها كل من يقترب حثيثًا منها؛ تقف على ساقٍ واحدة مدة طويلة تمامًا مثل "الفلامنجو"؛ تشعر أنها كائن أفولي لأن نشاطها يزداد في المساء.

شعر أن عينيها تتلونان كل لحظة بلون من ألوان قوس قزح، وأن المجموعة الشمسية تدور في مقلتيها، وأن الشمس تشرق من عينها اليمنى وتغيب في اليسرى. لطالما أحسَّ أنهما كرتان من اللهب، أو أن

براكين "مايون" و"إتنا" و"فيزوف" و"رينير" و"تال" و"فوجي" تنفجر كلها في عينيها.

حين يعاشرها يشعر أنها هي "الزئبق الأحمر" أو "إكسير الحياة"، وأنها "برمائية" و"أنثوذكورية"، وأنها هي من زَوَجت "إليزابيث الأولى" و"كاترين الثانية" في السر، وأنها هي من اصطادت الأشباح في "برج لندن" و"قلعة أدنبرة" وقرية "بهانجرا" وعمارة "رشدي"، وأنها هي من رصَّت الجماجم في كنيسة "سيدليك" ووضعت القائم الحديدي أعلى هرم خوفو، وطهت الجَزَر الأحمر في منخفض القطارة.

يشعر أن دلتا النيل تتفرع من مبيضيها، وأن سنابل القمح تخرج من رحمها، وأنها هي من جعلت البحر الأحمر يصنع علامة النصر، وأنها هي التي تمنع قارة أمريكا الجنوبية من السقوط، وأنها هي مَن زَرَعت جذر شبه الجزيرة الهندية في المحيط، وأنها صنعت مظلة من الفطر البري واختبأت في جراب "كنجارو" وسبحت في حمم أيسلندا ونامت تحت ثلوج سيبريا.

يشعر أنها هي مَن صَنَعت رسوم "نازكا" ونصَّفت مثلث برمودا وعزفت "الهارب" على خطوط الطول، وأنها هي التي رقصت لـ "هيرودوس" ووضعت السُّم لسقراط، وأنها هي التي أضحكت "الموناليزا" وتسلقت جبل "إيفرست" وحكمت على "سيزيف" بالعذاب الأبدي، وأنها شاركت في تحنيط "مرنبتاح" وزيَّنت المحظيات في "حرملك" السلطان "بايزيد" وقطعت الأشجار في غابات "الأمازون"!

(٤٦)

كانت "إيدا" فعلًا غريبة أو لنقُل مذهلة. تفعـل كـل شيء بطريقـة مختلفة. تمتلك قدرة عجيبة على إفراز الحـب. يمكنهـا أن تجعلـك تحـب أكثر الأشياء قُبحًا لو أرادت. قل لي عن أبغض شيء لديك وانظر كيـف يمكن أن تجعلك "إيدا" تحبه: تقشير البيض مثلًا عنـدما تكـون القـشرة ملتصقة؛ قُص أظفار قدميك عندما يكون لك بطن كبير، لضم الخيط في الإبرة في المساء، ماذا يمكنك أن تضيف أيضًا؟

كان لها قدرة مذهلـة عـلى ممارسـة الحـب، عنـدما يكـون منـصور بداخلها يشعر أنه يقفز كالحصان خـارج اللامحـدود؛ يـشعر أنـه مركـز الكـون ومحـور الأرض وأهـم شيء في الوجـود؛ وعنـدما يخـرج منهـا ينكمش فلا يمثل في حيز الفراغ إلا مقدار الهواء الذي يزيحه.

سأل منصور نفسه: "أين تعلمت هذه المهـارة في ممارسـة الحـب؟ براءة مظهرها لا تخبر بحنكتها وخبرتها. شعر معها بأنه حـشرة أطبقـت

عليها نبتة لتعصرها أو عنكبوت لتحلله. تستطيع تشكيل جسمها في حركات تعجز "نعيمة عاكف" عن القيام بها. تعشق الزوايا المنفرجة. تعطيك ليونة جسمها إحساسًا بأنها من اللافقاريات؛ وأنها تستطيع أن تنفذ من أكثر الأماكن ضيقًا كالإخطبوط وابن عرس.

حين يعاشرها يشعر معها أنه حبيس صوبة زجاجية في منطقة مكشوفة على خط الاستواء، أو أنه وقع في كير مُستعَرٍ أو فوهة بركان محموم أو بربخ من المياه الفوارة أو مرآة مقعرة تتجمع في بؤرتها أشعة الشمس. تنقل إليه كمية هائلة من الحرارة بالتوصيل والحمل والإشعاع والاحتكاك ووسائل أخرى لم تنص عليها دروس الفيزياء.

تنزع بعضًا من شعر صدره في عنف وتغرس أظفارها الطويلة في ظهره كنمرة تنقض على فريستها. تقبض على شفتيه بشدة حتى يتوجس منها خيفة ويحس أن نابيها سيبرزان من منبتهما ليمتصا دمه كدوقة "باثوري". تعض كتفيه وحلمتيه حتى يصيح من الألم والنشوة، هذه أول مرة يشعر فيها أن ثديي الرجل لهما فائدة.

(٤٧)

في يوم من الأيام خرجت "إيدا" لتبتاع بـصلًا مـن أسـفل الـشارع الذي يسكنون فيه. أرادت أن تنجز الطهي. حين علـم منـصور عنَّفهـا. بعدها بيومين طلب منها ارتداء ملابسها للخروج. كان طبيعيًّا أن تشعر بالاستغراب.

انطلقا نحو معمل الصوتيات بالجامعة. نفذت كل مـا طلبـه منهـا، لكنها شعرت بحزن شديد وربطت بين كل ما قام به معها منـذ وجـدها على شاطئ كليوبـاترا وهـذه اللحظـة، لم يبـذل منـصور جهـدًا مناسـبًا ليشرح لها الأمر أو يطمئنها.

بعدها بيومين اضـطر منـصور للـسفر إلى القـاهرة لمناقـشة رسـالة دكتوراه في جامعة القاهرة. لم يكن مستريحًا لترك "إيدا" بمفردهـا. أمَّـن لها الطعام والشراب وانطلق إلى العاصمة عبر الطريق الـصحراوي. مـا إن أنهى المناقشة حتى آب عبر الطريق الزراعـي لأن أحـد الـزملاء مـن دمنهور ركب معه.

ما إن بلغ شبرا الخيمة وخفَّ الزِّحـام نـسبيًّا حتـى انطلـق مـسرعًا يطوي الدلتا وقد تغيرت رائحة الهواء وظهرت عـلى اسـتحياء الحقـول الخضراء. مَرَّ قطار الشرق على الجانب الأيمن من الطريق وبه أكوام من البشر. طبعًا ليس هذا قطار الشرق الـسريع الـذي كتبـت عنـه "أجاثـا كريستي"، بل قطار الشرق المهين الذي ينطلق يوميًّا من رصيف الشرق بالعاصمة إلى محافظة الـشرقية حـاملًا أطنانًـا مـن البـشر داخلـه وعـلى سـطحه، تلـك الرحلـة التـي كتـب عنهـا متعجبًـا ومندهـشًا الروائـي الإنجليزي "ب. هـ. نيوبي" في روايته "نزهة خلويـة في سـقارة".[1] لا تعليق. مصر في عهد الاضمحلال الرابع، الدولة العتيقة البالية التي عفا عليها الزمن وأكل الدهر عليها وشرب.

في الطريق حكى منصور للدكتور "نعمان" عن قـصة امـرأة رشـيد من الألف إلى الياء عدا بالطبع أنه وجدها وأنها تقيم معه في المنزل. علق الدكتور نعمان:

- أنا أتفق مع الدكتور عدلي تمامًا فالبيئة والأجـواء والأحـوال لا تُشجع على البحث العلمي، لكن يجب علينا ألا نيـأس. مـن المحـزن أن يكون هـذا موقـف وكيـل النيابـة مـن التجربـة! آه لـو يعلـم أن جـده "بسمتاح الأول" أجرى هذه النوعية من التجارب حين عزل طفلين في القرن الخامس قبل الميلاد في كوخ مع خدم صُـمٍّ بُكـمٍ كـي يعـرف أول كلمة ينطق بها الصبيان، والقصة أوردها "هيروديت" كما تعلم.

---

(1) P.H.Newby, The Picnic at Sakara.

- نعم.

- الأشخاص العاديون لا يفهمون معنى أن يظلَّ عالِمُ بيئةٍ في القطب ستة أشهر ليسجل ظاهرة معينة، معنى أن يبحث آخر عن نبتة في الصحراء سنوات، أن يمضي ثالث شهورًا لتأصيل جذور كلمة، أن يمضي شخص مثل "زهير الشايب" عشرين عامًا يترجم كتاب "وصف مصر" لعلماء الحملة الفرنسية. الأغرب من ذلك أنهم قد يقابلون هذا الكلام بسخرية ظانِّين أنه مضيعة للعمر ومهلكة للبصر.

- أصبت.

- بالأمس شاهدت بالمصادفة البحتة حلقة من برنامج مقالب يُذاع على قناة رخيصة. لولا ابنتي ما شاهدت هذه الحلقة. تخيل يا دكتور استضافوا عالمًا جليلًا في تخصص الأنثروبولوجي ومعه فنان شعبي رخيص، وراحت المذيعة التافهة تخلط حديث هذا بذاك مما سبب ارتباكًا للدكتور فانصرف مغتمًّا.

- عليه أن يقاضي القناة لأنها أذاعت الحلقة دون موافقته.

- هذا ما ينتوي فعله بالضبط.

وجد منصور السلوى في كلام الدكتور نعمان. لم يندم لأنه غيَّر مسار العودة إلى الإسكندرية، فالرجل ممتع وحديثه شائق. صمت الدكتور نعمان لحظاتٍ أدار فيها وجهه نحو الحقول، ثم عاد يقول:

- لكن هل عرضت على المـرأة أبجـديات مختلفـة وقـست مـدى استجابتها للحروف المكتوبة؟

- أجل يا دكتور جربت معها كـل شيء؛ لا تُعـبِّر عـن نفـسها إلا بالرسم.

- هذا دليل قاطع أنهـا تنتمـي لإحـدى اللغـات ذات الأبجديـة المصورة.

- استنتج الدكتور عدلي هذا الأمر أيضًا.

- وماذا عن الصليب والإنجيل والكنيسة وما شابَه؟

- لم تتعرَّف هذه الأشياء أصلًا، كما أنها مرت بمرحلة من الـذعر كلما رأت أو تعاملت مع مفردات العصر الحالي؟

- هـل لرسـوماتها أي علاقـة بالأبجديـة الهيلوغرافيـة المـصرية، بمعنى هل رسمت جرة مثلًا أو سلة أو ترباسًا أو منزلًا أو يـدًا أو قـدمًا أو خلافه.

- لا، لكنها تحبُّ الحيوانات كثيرًا.

(٤٨)

ربما لا أكون نصيبك، لكنى الوحيدة التي أحبَّتك، ما تخشى فَقْدَه تفقدُه بالفعل.

وضع منصور المفتاح النحاسي في "كالون" الشقة وأدراه فانفتح الباب بغتةً مدفوعًا بتيارات الهواء المتمردة اللاهية. عاد من سفره متشوقًا لإيدا، لكنه لم يجدها.

وقع قلبه في قدميه وتجمدت الدماء في عروقه. سرت في جسده قشعريرة باردة وصلت إلى شعر رأسه. لم ينتظر منصور المصعد. نزل الدَّرج عَدْوًا. كان متأكدًا أنه سيجدها على البحر كعادتها. مسح "الكورنيش" خمس مرات دون جدوى. فص ملح وذاب. اختفت تمامًا. اللعنة! اقتنصت روحه ومضت.

رحلت "إيدا" من جديد ورحل معها آخر ما تبقَّى له من أمل في هذه الحياة. بحثَ عنها طويلًا وضاعت حين وجدها. ملأت الدموع أيامه من جديد. متى سيكفُّ عن البكاء؟

ما أنبل الحزن! ما أقساهُ حين يُكتب الفراق على الأحبة فيسكبون دموع الفقد وينشجون لوعة البُعد. أصعب ما في الحب أن تجده ثم يضيع منك، أن تجده ثم تفقده. صَدَقَ من قال إن الفراق صعب، وإنه نصف موت.

كم تصبح الحياة مستحيلة حين ينسحب منها شخص اعتادت عيناك رؤيته كل فينة، يتحول الكون إلى جماد؛ بل إن الجماد أكثر حيوية، بعدها تدخل أنتَ أيضًا في هذه الحالة الصلبة.

عاد منصور مكسورًا مقهورًا إلى المنزل فرآه قفرًا. عرف أن التجربة كانت وراء رحيلها. كان يجب عليه أن ينتظر أو يُلغيها من الأساس. حتى الدكتور عدلي حين عرف بحكاية رانيا وأحسَّ بحبه لإيدا تراجَعَ عن تنفيذها أو قُل أوكل الأمر كله لمنصور وفوضه في إجراء التجربة من عدمه. ما ثمن المجد الذي سيحصل عليه بعد أن خسر "إيدا"؟!

دَقَّ جرس الباب فانتفض واقفًا كالزنبرك. دَقَّ قلبه بشدة وفَقَدَ السيطرة على جسمه. انطلق عَدْوًا ليفتحه، لكن لم يجد أحدًا. صعدَ إلى سطح البناية ونزل إلى مدخل العمارة وهو بملابس البيت، لكن دون طائل أو جدوى. في الأخير آبَ إلى غرفته وعاد إلى فراشه دافنًا وجهه بين راحتيه.

جلس منصور ينتظر عودة "إيدا" تمامًا كبطل الفيلم الذي ذهبت فيه زوجته لشراء طابع بريد ولم تعد.[(١)] مَرَّ بحالة متفاقمة من الاكتئاب،

---

(١) "الراجل ده هايجنني" بطولة شويكار وفؤاد المهندس.

عاش على المهدئات، يستدرج النوم، لكنه لا يطاوعه. أين يهرب من وجعه؟ كل الطرق تُسلمه إليه.

نفسٌ مُشوَّهة وروح مصلوبة وجسم مهزوم. أُصيبَ على الأرجح بأعراض "ديوجين"،[1] ذاك الفيلسوف اليوناني الذي كان يعيش متقوقعًا داخل برميل نبيذ خالٍ. شعر أنه مضمحل ومحنط في تابوت الحزن يخوض غمار ليل طويل كالأبد. تسربت الأيام من بين أصابعه. ما زال يشم رائحتها في المنزل. رائحتها في ملابسه.

أخذت معها صورتها وأبقت الصورة التي رسمتها. لِمَ فعلت ذلك؟! هكذا سأل منصور نفسه. في الحلم جاءه الرد: "أعرف أنك تبحث عني. لا تبتئس فأنا موجودة."

ستجدني في جبال الأرز بلبنان، وفي ريف دمشق، وفوق أسوار عكا، وتحت نخيل العريش، وعند معبر رفح. ستجدني في جبال برقة، ورمال مصراتة، ستجدني في حلويات دمياط، في قيود سبتة، وحزن مليلة، في لب مطروح ونعناعها، في زيتون تونس، وتين سيدي براني، ومدرجات الكرة ببرشلونة.

ستجدني في "بنغازي" أو "باليرمو" أو "مرسيليا" أو "ليماسول" أو "طبرق" أو "نابولي" أو "عنابة" أو "فاليتا" أو "صور" أو "لارناكا" أو "اللاذقية" أو "نيس" أو "طولون" أو "يافا" أو "بنزرت" أو

(1) Diogenes Syndrome.

"طرابلس". كلها أسماء لمدينة واحدة ويسكنها مستنسخات للبشر أنفسهم.

انظرْ إلى السحاب سوف تراني هناك أقفزُ فوقه. انظرْ إلى قوس قزح ستراني ألهو وأتزحلق عليه. ستجدني في عيون الصبية وحلم الفقراء وحكايات العاشقين، على جدران معبد الدير البحري والكنيسة المعلقة وجامع العطارين. ابحث عني ستجدني: في عذوبة مياه طوبة، ورائحة أزهار البرتقال، في قطرات الندى على أوراق التوت، في اغتسال أشجار الصفصاف في النيل وفي فنجان قهوتك الكولومبية الجميل.

أنا فرحك وحزنك وقُربك وبُعدك ويقينك وشكك وحبك وكرهك وجنتك ونارك وشموخك وانكسارك. أنا أسكن حنجرتك؛ ألعب "الترابيز" على أحبالك الصوتية. أنا موجودة لم أغِبْ. ابحثْ عني.. ستجدني. فقط تمسَّك بطرف الخيط.

(٤٩)

هل تعرف هذا الشعور حين يخترق البرد ظهرك وعمودك الفقـري وأنت مستلقٍ تحت الغطاء؟ هذا الشعور حين تضع قـدمك عـلى درجـة من السلم غير موجودة؟ هذا الشعور حين ترفض يدك التعامل مع اليد الأخرى؟ حين ينتفض جسمك وأنت نائم؟ حين تعض لسانك؟ حـين يصطدم إصبع قدمك الـصغيرة بقطعـة مـن الأثـاث؟ حـين تتحـسس الظلام بأصابع قدميك؟ حين يدخل الصابون في عينيك؟ حين تنحـشر بذرة من ثمرة الجوافة بين أسنانك؟ حـين تتنـاول حبـة مـن الفـصفص لتكتشف أنها تحوي رملًا؟ حين تسقط من فوق الفراش في أثناء النـوم؟ حين ينحبس الدم في أظفارك؟ حين تستيقظ من النـوم لتـسأل نفـسك: "أين أنا؟" مثَّل كلُّ هذا مُجتمِعًا شيئًا يسيرًا مما شعر به منصور.

أين أنتِ يا "إيدا"؟ أنـا العـدم دونـك.. حـصاد الهـشيم.. ضـيعة السنين.. كومة قش.. خرقـة باليـة. أنـا هـذا الـصدع في الحـائط، وذاك

الشرخ في لوح الزجاج. أنا الرجل الـذي أطلـق رصاصـة الرحمـة عـلى رأسه؛ لأنه لم يعرف كيف يُنهي الحكاية! عودي يا "إيدا"!

مرت الأيام ثقيلة ومنصور لا يفتأ يمسح الكورنيش كل يوم حتـى جاء يوم لم يفعل. عاد إلى أبحاثه يدفن فيها نفسه. كـان منـصور ينتمـي لنوعية من البشر تدمن العمل، نوعية تمـوت إذا سُرق منهـا حلمهـا، إذا أحست أنها زائدة على الحياة، وأنها لم تنجز شيئًا أو تترك أثرًا.

البحث هو الشيء الوحيد الذي يجعله لا يشعر بوطأة الوقت. يقتل أيامه فيه كما قتل الإسكندر أعوامه القليلة في الغزو. حـين أخـبره قادتـه أنه لم يعد هناك مكان يغزوه بكى. في بعض الأحيان كان منصور يُمـزِّقُ بحثـه ويبـدأ مـن جديـد تمامًـا كـما كانـت تفعـل "بينيلـوبي" زوجـة "أوديسوس"، تغزل نهارًا وتنقض غزلها ليلًا.

كَرِهَ منصور بحثه الأخير لأنه أضاع "إيدا"، لكنه أحبَّه لأنه يـذكره بها. ذات يوم جلس في المنزل يُقلِّـبُ أوراقـه. فـتح موسـوعة الطلاسـم اللغوية أو اللغويات الغرائبية ليبحث عن معلومـة معينـة. هبَّـت ريـح غريبة فانفتحت النافذة على مصراعيها. سارع منصور بغلقها وحين عاد للموسـوعة وجـدها مفتوحـة ومـستقرة عنـد موضـوع "قـرص فيستوس"![1]

(1) Phaistos Disc.

(٥٠)

"قرص فيستوس" هو قرص مصنوع من الفخار يعود للقرن الثاني قبل الميلاد. وُجد القرص عام ١٩٠٨ في القصر المينوسي بجزيرة كريت. قطره ١٥ سم ويحوي ٢٤١ مقطعًا بها ٤٥ رمزًا بتكراراتهم موزعةً على كلا وجهيه في شكل حلزوني. لم يفلح أحد في فَكِّ رموز القرص إلى الآن. البعض يقول إنه لعبة مصرية قديمة اسمها "سينيت[1] والثعبان". آخرون يرون أنه تقويم أو وثيقة فلكية أو صلاة للأم التي هي رمز الخصوبة.

اعترت الدهشة منصور حين وجد أن "إيدا" قد فتحت الموسوعة ووصلت إلى هذه الصفحة. وضعت دوائر على أربعة رموز في القرص هي: السفينة والسمكة والبلطة والمنشار. لماذا فعلت ذلك؟!

---

(1) Senet.

ظَلَّ اليوم بطوله يبحث عن علة صنيع "إيدا". لم تذق عيناه طعم النوم. أخذ يقرأ ويُحلِّل ويربط بين المعلومات التي لديه حتى انكشف المستور وتجمعت في يده خيوط اللغز.

القرص وُجد في كريت. كيف فاته أن "إيدا"(١) هو اسم أعلى جبل في جزيرة كريت، وأنه حين كانت "إيدا" تكرر الاسم في أثناء مرضها كانت تقصد الجبل الذي سُميت على اسمه، وهو ذات الجبل الذي رسمته وتغطي قِمَّته كما تقول موسوعة "الوكيبيديا" أشجار ضخمة كانت رزقًا للحطابين في العصور الغابرة.

التحطيب في الماضي كان يتم باستخدام البلطة والمنشار، ويبدو أنه كان مهنة عائلتها، وأما الشمس التي رسمتها فتشير إلى كريت حيث تُعرف بجزيرة الشمس، ويقصدها إلى الآن طائفة ممن يعبدون الشمس، وأما السفينة والسمكة فيعبران عن رغبتها في العودة.

حلَّت "إيدا" اللُّغز كله أو قل أزالت الغموض. كريت إذن هي مقصد "إيدا". إنها في كريت. كيف فاته ذلك؟

بدأ منصور في اتخاذ الإجراءات اللازمة نحو توثيق الحالة ونشر البحث وعَقْدِ مؤتمرٍ عالمي ساهَمَ في ذيوع صيته. وصل فريق البحث بأعضائه الثلاثة إلى أن لغة "إيدا" هي "المينوية"(٢) وهي لغة قديمة

---

(1) Ida.

(2) Minoan Language.

كانــت تُــستخدم في كريــت، ولم تُفــك شــفرتها حتــى الآن، وتُكتــب بهليوغرافية كريتية.



(٥١)

اندفع بحر الإسكندرية بين مَدٍّ وجـزر في قلـوب سـاكنيها حـاملًا الهواء النقي إلى شرايينهم. مـرت الأيـام كئيبـة ومنـصور يـزداد وجعًـا وحُزنًا. أصبحت غرفته المكان المفضل له يؤوب إليها بعـد عنـاء اليـوم يختبئ بها حتى الصباح.

كانت أجمل أحاسيس أيامه هو وقت استعداده للنـوم عـلى سريـره الذي يعشقه. مثّل النوم بالنسبة له الهروب من هـذه الـدنيا، آلـة الـزمن التي تأخذه إلى عصور أخرى وأماكن مختلفة، وكان الصحيان بالنسبة له بداية الكابوس. صار يحب النوم حتى يهرب بإخفاقاته. توهَّم أنـه غـير موجود، أو أن دماءه تجمَّدت أو أنه فَقَدَ أجهزته الداخلية أو أنه في بيات شتوي.

أصبح الملل ردف حياته. هل شـاهدت إنـسانًا يحـاول عَـدَّ أسـنانه بلسانه؟! هل رأيت إنسانًا يُكوِّن صورًا مـن أشـكال الـسحاب؟! هـل

رأيت إنسانًا ينتظر جفاف دهان الحائط في يوم بارد؟! هل حاولت إعادة معجون الأسنان إلى الأنبوب؟! هل قابلتَ إنسانًا ينتظر نمو العشب في حديقته أو تكون الصدأ على حديد النافذة؟! هل جربت العد من واحد إلى مليون؟! هل جربت عَدَّ النجوم؟! هل ظللتَ ترقب ساعتك حتى تقف؟! هل بنيتَ منزلًا من خلل الأسنان وأعواد الثقاب؟! هل حاولتَ حفظ المعجم؟! هل حاولتَ وضع أصابع قدمك بعضها فوق بعض؟! هل جربتَ تقشير العنب؟! هذا كله لا شيء في حالات الملل التي مَرَّ بها وتملكته.

قابله الدكتور "عدلي" قائلًا:

- منصور ألن تذهب إلى كريت؟ ألن تبحث عن "إيدا"؟

- هل تظنُّ يا دكتور عدلي أن هذا أمر سهل. إنه كمن يبحث عن إبرة في كومة قش. وهل توجد ضمانة أن رانيا أو "إيدا" أو أيًّا كان اسمها قد وجدت سفينة تقلها خلسة إلى كريت؟ وهل توجد ضمانة أنها قد وصلت بسلام إلى هناك؟

- على الأقل حاول. هل سمعت يومًا عن تجربة الضفدع والماء المغلي؟

- لا.

- دعني أخبرك عنها واستمع إليّ جيدًا. هذه التجربة أجراها أحدُ العلماء في القرن التاسع عشر لا أذكر اسمه الآن. أثبتَ الرجلُ أنه إذا

ألقيتَ ضفدعًا في الماء المغلي فسوف ينتفض ويقفز من فوره خارج الإناء، لكن إذا وضعتَ ضفدعًا في ماء معتدل الحرارة فسوف يشعر بالراحة، فإن سخَّنتَ الماء تدريجيًّا وببطء شديد فإنه لن يثب خارج الإناء. ومع وصول الماء إلى درجة الغليان سيموت الضفدع سلقًا.

- ماذا تريد أن تقول يا دكتور؟

- إن ما قتل الضفدع ليس الماء المغلي، بل غفلته عن إدراك ما يحدث حوله وعدم اتخاذه قرارًا بالقفز خارج الإناء في الوقت المناسب.

- ماذا تقصد يا دكتور؟

- تدرك ما قصدته تمامًا. اقفز! الانتظار احتضار؛ أصعب انتظار ترقُّب من لا يأتي. اقفِزْ!

- أقفز؟!

- البرد يا منصور غير موجود؛ إنه يظهر فقط حين تختفي الحرارة. والظلام غير حقيقي؛ ينزل فقط عندما يرحل الضوء. والشر ليس له أساس؛ يسيطر فقط عندما ينزوي الخير. لا مناص من قفزة الثقة تلك.

- لا بأس، لكن لديَّ زيارة مهمة لا بد أن أقوم بها قبل السفر.

- وما هي؟

- سأخبرك لاحقًا يا دكتور.

(٥٢)

تذكَّر منصور أن رانيا كانت تسكن شارع "لاجيتيه" بالإبراهيمية، وأنه في يوم من الأيام أوصلها إلى هناك. ركب الترام ونزل محطة الإبراهيمية وأعاد تمثيل المشهد الذي مضى عليه عشرات السنين. يحفظ اسمها ثلاثيًّا "رانيا مجدي مينا". سأل في الحوانيت والجوار، ثم تمنَّى لو لم يفعل.

لقد غرقت رانيا العام الماضي في منتجع بالعين السخنة. لا تعليق! صمت وفي الصدر مائة حكاية. ظل يُسلمه إلى ظِلٍّ ويأس يُسلمه إلى يأسٍ وحزن يُسلمه إلى حزن. "اكتوارية" من العذاب والوجع. من قال إن الروح لا تنزف؟

هطلت دموع منصور وهو يقول: "أنا الغريق يا رانيا." "الرجل الهالك .. لم يسمعه أحد، ظَلَّ هناك يتأوَّه: لقد كنتُ أبعدَ كثيرًا مما ظننتم، ولم أكن ألوح بل أغرق."[١]

---

(١) الأبيات للشاعرة البريطانية "ستيفي سميث".

بلع الماء "يام" ابن نوح والملك الروماني "تابيرينوس" والشاعر الرومانسى "شيللي" و"بطليموس الثامن" والإمبراطور "باربروسا" و"إيجس" و"نرسيسيوس" و"أوفيليا" الجميلة حبيبة "هاملت"، لكن كيف طاوع البحر نفسه فبلع رانيا؟!

تعرَّف صاحب محل فضيات يحتل ناصية الشارع الدكتور منصور. كان طالبًا عنده في القسم، فرَّحب به وابتاع له كوب عصير قصب. حين شعر "فادي" باهتمام الدكتور منصور برانيا أَسَرَّ له بأنها كانت جارته وبنت معموديته. أكمل:

- تزوجت رانيا بضغط من والدها بتاجر مصوغات ذهبية من كفر الشيخ ذي ثراء فاحش، لكنها كانت تعيسة في حياتها معه. لم تستطع الحصول على الطلاق بسبب قيود كنسية. حملت منه وفي الشهر السادس مات الجنين في بطنها. أُجريت لها عملية قيصرية للتخلُّص من الجنين. منذ هذه اللحظة تحوَّلت كآبتها إلى رفض للحياة.

- تقصد أنها ربما تكون قد..

- انتحرت؟!

- نعم.

- ربما. لقد كانت تقود السيارة بمفردها، ويبدو أنها شردت فلم تشعر بقدمها تعصر دواسة البنزين فاصطدمت بأقصى سرعة في شاحنة من الخلف.

- يا الله!

(٥٣)

شكر الدكتور منصور فادي الذي ناوله بطاقة صغيرة عليها رقم هاتفه الشخصي ورقم المحل.

"تزوجت بضغط من والدها بتاجر مشغولات ذهبية!"، هكذا حدَّث منصور نفسه في طريق العودة مُردِفًا: "ماذا فعل الذهب لقارون؟ وهل نفع الذهب الذي كنزه المستعصم صاحبه حين شعر بالجوع فجاءه هولاكو بطبق عليه سبائك من ذهب قائلًا: كُل. ماذا فعل الذهب لرجل الدولة الروماني، ماركوس كراسوس، حين صبوا الذهب المنصهر في حلقه؟[1] وماذا فعل الذهب للملك مايدس حين تحولت ابنته إلى تمثال؟ بل ماذا فعل الذهب لبني إسرائيل؟ وهل أفاد

---

(١) ماركوس ليسينيس كراسوس Marcus Licinius Crassus ١١٥-٥٣ قبل الميلاد هو قائد عسكري روماني قضى على ثورة العبيد بزعامة سبارتكوس، وكان من أغنى أغنياء عصره.

ذهب كاليفورنيا چيمس مارشال، الرجل الذي اكتشفه في مجاري الأنهار هناك وانتهى به الحال فقيرًا مُعدمًا؟"

الذهب في مقابل الحب، أيها الرابح؟ ألم يَقُل السيد المسيح: "حيث يكون قلبك هناك يكون أيضًا كنزك."[١] كانت رانيا غارقة على الشاطئ إذن. أنقذها الغرق. "أنا الغريقة فما خوفي من البلل."[٢]

تذكَّر منصور كلام أخته سعاد عن الحب الأول حين أرادت تطييب خاطره فقالت إنه حَمْلٌ كاذب وانكسار للضوء وخطأ البوصلة، وأنه وهم وسراب.

قالت إن الناس عادة ما يبحثون في لحظات الضعف والقهر والانكسار عن كذبة يصدقونها، كذبة تخدرهم وتدغدغ مشاعرهم تمامًا مثل "البطة البرية" في مسرحية "إبسن" التي ينسج كل الأبطال حولها خيالهم.

قالت إن الناس دومًا يسمعون ما يريدون سماعه ويرون ما يريدون رؤيته ويصدقون ما يرغبون في تصديقه وما يصادف هواهم تمامًا كماكبث والساحرات الثلاثة.

---

(١) مت: ٦.

(٢) نقولا حداد، حواء الجديدة، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ٢٠١٢، ص ١٠٦.

قالت إن الناس دومًا في بحثٍ عن المجهول، وأنهم دومًا في انتظار وصول شيء ما، "جودو" ما كما أوضح صمويل بيكيت في مسرحيته[1].

قالت إن الأعوام تنصرم ونحن ننتظر وصول شيءٍ لا نعرفه، ويمرُّ العمر ونحن نتشوَّق لبلوغ أمر لا ندركه!

قالت له دَعِ الماضي في تابوته. لا توقظه واضرب على منوال جبران حين قال: "فهم في البعد أحلى وهم في البعد أرقى وهم في البعد أغلى."

قالت أشياء كثيرة، لكنه أبى أن يُصدِّقها.

---

(١) [illegible].

(٥٤)

صمَّم الدكتور عدلي على توصيل منصور إلى مطار "بـرج العـرب" حيث سيأخذ الطائرة المتجهة إلى أثينا ومنهـا يـستقل رحلـة داخليـة إلى "هيراكلون"، عاصمة كريت، نسبة إلى "هيركليز".

في الطريق سردَ منصور على مـسامع الـدكتور عـدلي حكايـة رانيـا ومشوار الإبراهيمية. بعدها أطبقَ الصمت عليـه! لم يفـق إلا والـدكتور عدلي يصف السيارة في المطار ويقول له:

- عُدْ بها أو بمستنسخ منها.

- ماذا تقصد يا دكتور؟! لا أفهم.

- ألا تعلم أنه هناك مَن يقول إن لكل منـا خمـس نُـسخٍ، وأن مـا يسكن الأرض في الحقيقة هم مليار نسمة وخمس مليارات نسخة.

- لا. سمعتُ فقط عن المثلين "حبـة فـول وانقـسمت نـصفين" و"يخلق من الشبه أربعين".

- أربعون نسخة؟!

- لا أدري. لا أظن أن ذلك هو المقصود.

- هل تذكر يا دكتور منصور فيلم "عفريتة هانم"؟

- بالطبع. أحبُّ هذا الفيلم كثيرًا.

- هل تذكر نهايته؟!

- نعم. أظنُّ أن البطل لم يجد فتاة الفانوس.

- لكنه وجد الراقصة التي كانت نسخة منها. تصحبك السلامة.

في الطائرة أخذ منصور يفكر في كلام الدكتور عدلي. تمنَّى لو سـافر عبر الضوء ليـصل إلى هنـاك بـسرعة. أحـسَّ أن شـيئًا مـا يجذبـه بقـوة كالأجرام نحو فراغ هائل وهُوَّة سحيقة.

حقًّا، السفر قطعة من العذاب. في الطريق من الإسكندرية إلى أثينـا تململ منصور في جلسته. راح يرقب وجـوه المـسافرين. يحـب الغربـاء لأنهم لا يتحدثون إليه ولا يطلبون منه شـيئًا. انفـرط عقـد الـذكريات. عصفت بلُبِّه وأخرجته عن جادَّة صوابه.

(٥٥)

كي يقتل منصور الوقت في الطائرة أخرجَ كتابًا ابتاعه عن كريت وأخذ يقرأ: "نشأت بها الحضارة المينوية الفترة من ٢٤٠٠ إلى ١٤٠٠ قبل الميلاد، وكان لها صِلات كبيرة بمصر القديمة. يُقال إنها منشأ الموسيقى.

تكلَّم الشاعر هوميروس في إلياذته عنها قائلًا: إنه يسكنها رجال لا حصر لعددهم ينتمون إلى جميع الأجناس. حكمها الروم والعرب والبنادقة والأتراك. أورد المؤرخ تيودور الصقلي أن الإله المصري آمون ضاق ذرعًا بإحدى المجاعات التي وقعت في مصر فأبحر إلى هذه الجزيرة وتزوج منها فتاة اسمها كريتا."[1]

(1) Lacroix, M. L., Histoire et Description de tous les peoples, Iles de la Crece, P.530.

سَرَحَ منصور بخياله وهو يردد: "تزوج فتاة اسمها كريتا!" عاد يكمل القراءة: "ومن أساطيرها أيضًا أنه كان يحكمها ملك يُدعى مينوس وكان سكان أثينا يرسلون للملك سبعة شبان وسبع فتيات سنويًّا قُربانًا لوحش يسكن قصر التيه. في إحدى السنين كان ضمن القربان فتى اسمه ثسيوس وقعت أريادني بنت الملك في حبه فأعطته سيفًا وكرة خيط يقتل بالسيف الوحش وبكرة الخيط يستدل على مخرج المتاهة، وقد كان وتزوج ثسيوس من بنت الملك."

شَرَدَ منصور لحظاتٍ وهو يفكر بصوت مرتفع: "أتذكر أن رانيا قصت عليّ قصة مشابهة عن مارجرجس والتنين وفتاة تُلقى له في النهر. قصص كلها جميلة ونهايتها سعيدة. كرة الخيط للخروج من المتاهة، كرة الخيط وخيط القدر."

تمنَّى منصور أيضًا أن تنتهي قصته نهاية سعيدة. فحص خريطة كريت[1] دقيقة ثم أكمل القراءة:



(١) أسمت غنيم، الإمبراطورية البيزنطية وكريت الإسلامية، دار المعارف، ١٩٨٣، ص ٣٧.

"خرج الكريتيون بعدة موجات من الهجرات أغلبها بسبب الطاعون الأسود الذي ضَرَبَ الجزيرة مراتٍ عديدة كان آخرها عام ١٤٥٦ ميلادية. في مطلع القرن العشرين رُحِّلَ الكريتيون المسلمون إلى تركيا والكريتيون الأرثوذكس إلى اليونان، ومجموعات من كلا الفئتين إلى مصر وليبيا تحديدًا سوسة وشحات والبيضاء وبنغازي. يعرفون هناك باسم القريتلية ولهم وجبة شهيرة تُعرف بنفس الاسم. استقروا أيضًا في طرطوس والحميدية في سوريا وطرابلس في لبنان. في مصر يعرفون بالجريتلي والجريدلي، وهناك في القاهرة بيت أثري شهير اسمه "بيت الكريتلية" ويقع في شارع المعز.

والكريتيون محافظون حتى أنهم طردوا أعضاء حركة الهيبز الذين جاؤوا إلى الجزيرة واستوطنوا كهوف ماتالا.(1) والمرأة الكريتية سيدة منزل بامتياز وتتقن الطهي ومعروفة بالحشمة والإخلاص والتفاني."

تَرَكَ منصور الكتاب وأخرج دفتره. راح يكتب شيئًا لإيدا، ربما قصيدة أو ما شابَهَ. أراد أن يعبر عن عشقه لها. أغلق الدفتر متنهدًا، ثم عنّ له أن يحل "سودوكو".

تذكر "إيدا" من جديد وحبَّها للأرقام التي تشاجرت فيما بينها. أمسك الواحد بالثمانية من حزامها حتى خنقها. تناطحت الثلاثة مع الاثنين. دارت الستة والتسعة في الهواء كصقرين في خضم عراكهما.

---

(1) Hippies – Matala.

ظلت السبعة مترفعة. ذاك رقمه المفضل: سبعة أيام وسبع سنين عجاف، سبع سماوات وسبعة ألوان لقوس قزح، سبعة أقزام حول "سنووايت" وسبع خطايا وسبعة بحار يقطعها سندباد، سبعة أعمدة من الحكمة وعجائب الدنيا السبع.

(٥٦)

هبطت الطائرة مَدْرَج مطـار أثينـا. اتَّجـه منـصور إلى البوابـة التـي سيأخذ منها الرحلة الداخلية المتجهة إلى "هيراكليون". أخذ يتفـرس في ملامح الركاب فوجدها قريبـة جـدًّا مـن المـصريين. في انتظـار طائرتـه جلس يراقب الوجوه حوله.

خارج الحاجز الزجاجي للمطار وضعت فتاة كفَّ يدها مقابـل يـد فتى يقف بالداخل، بالقرب من المشهد انهمـك عامـل نظافـة في مـسح الزجاج. انطبق الكفَّان تمامًا. رسـمت الفتـاة قلبًـا عـلى الزجـاج الـذي استقرت عليه الشبورة. اضطر الفتى للرحيل، ربـما ليلحـق بطائرتـه. لم تُحرك الفتاة ساكنًا. وقفت دون حـراك أمـام اللـوح الزجـاجي. بـدأت الحرارة تتلاشي عن انطباع كفيهما.

ظَلَّ منصور يتابع المشهد كمصور من "ناشـيونال جيوجرافيـك". تحرَّك عامل النظافة ليجلي بـاقي ألـواح الزجـاج، توقـف أمـام انطبـاع

الكف، ناشدَهُ منصور في سِرِّه ألا يزيلـه. بالفعـل تركـه عامـل النظافـة وتخطاه للوح التالي. فجأة ظهر الفتى خارج صالة المطار. أغلـب الظـن أنه تخلى عن فكرة السفر، نادى على حبيبته، التفتت إلى مصدر الـصوت، طارت نحو ذراعيه المفتوحتين، عانقها وطوَّحهـا في الهـواء. أي شيء في الدنيا يعدل هذه اللحظة؟ قل لي أنت؟ لا شيء. ما أجمل العشق؟

وصل منصور مطار "نيكوس كازانتزاكيس"[1] بالعاصمة نسبة إلى الروائي المشهور صـاحب روايـة "زوربـا" و"الإغـواء الأخـير للـسيد المسيح". بعد أن وضع متاعه في الفندق، قرَّر الانطلاق لزيـارة المتحـف الجيولوجي بـ "هيراكليـون".[2] مـا زال لديـه وقـت، فـالمتحف يُغلِـقُ أبوابه في الخامسة بعد الظهر.

في المتحف شعر بالهيبة وهو يمشي الهوينى نحو قرص "فيـستوس" العجيب، وأخذ يتأمل على الجانبين الرموز الأربعة التي حددتها "إيـدا" ويتذكر هذه السطور من رواية "زوربا": "إن كل شيء في هذا العـالم لـه معانٍ خفية: الرجال، الحيوانات، الشجر، النجوم. إنهـا تبـدو كـالرموز الهيروغليفية لمن بدأ في حلِّها ليكتشف خفاياها. عندما تراها لا تفقه لهـا معنى، فتعتقد أنها رجال أقحاح وحيوانات وأشجار ونجوم، ولكن بعد مرور السنين وبعد فوات الأوان تفهم معناها الحقيقي".

---

(1) Nikos Kazantzakis.

(2) Archaeological Museum of Heraklion.

(٥٧)

عاد منصور إلى الفندق فتناول العشاء في المطعم. ناوله موظف الاستقبال مفتاح غرفته ونسخة من برنامج البث التلفزيوني الداخلي للفندق. وجد على المطوية صورة ممثلة أمريكية مشهورة. علَّقَ قائلًا:

- "جينيفر أنستون"، أليس كذلك؟

- نعم يا سيدي، ألا تعلم أنها من أصولٍ كريتية؟ نحن نفتخر هنا بهذا الأمر. إنها جميلة حقًّا، أليس كذلك؟

- بلى.

صَعَدَ منصور إلى غرفته وحاول الخلود للنوم، فلديه يوم حاسم غدًا. لا بد أن يستيقظ مبكرًا ثم يتوجَّه إلى جبل "إيدا" على بُعد ساعة ونصف قيادة من "هيراكليون". شعر بالقلق ربما لتغيير مكان نومه وربما بسبب ما هو مُقدِم عليه.

اعتدلَ في فِراشه ونَظَرَ إلى التمثال الصغير الموضوع على منضدة التلفاز. إنه لآلهة الثعابين في الحضارة الكريتية القديمة. امرأة جميلة عارية الصدر تمسك بثعبانين كل في يد. الثعبان هو لا شك رمز للحياة المتجددة لأنه يغير جلده من مرتين إلى أربع مرات سنويًّا. ربما يكون هذا غير لائق، لكن منصور لاحظ شبهًا عجيبًا بين ثديي المرأة ونهدي "إيدا" حتى أنه قام من فراشه وأمسك بالتمثال وراح يتحقق من هذا الأمر عن كثب!

قرر أن يشاهد التلفاز لبعض الوقت. أطلت "جينيفر أنستون" على شاشته في فيلم "الحب يحدث".[1] تدور أحداثه حول رجل يحمل درجة الدكتوراه وَضَعَ كتابًا يحوي نصائح لمن خسر حبيبته. ألَّف الرجل الكتاب بعد موت زوجته في حادث سيارة. في أثناء تنظيمه لورشة عمل في مدينة "سياتل" التي تنتمي لها زوجته الراحلة يقابل امرأة تمتلك محل وردٍ، وبعد تردد يقرر أن يمنح علاقتهما فرصة للتطور.

استغرب منصور أنه لم يشاهد هذا الفيلم من قبل ووجد نقاط التماس كثيرة بين حبكته وقصة حياته هو شخصيًّا. قبل أن ينام أخرج هاتفه ليضبط المنبه. كانت صورة "إيدا" على شاشته.

أخذ ينظر إليها ثم قال: "إيدا.. لقد أخطأتُ في حقِّك. لم أستمع إلى نصيحة الدكتورة نعمات. إيدا.. أنت أهم عندي من أي إنجاز. أنت

---

(1) Love Happens.

حبيبتي يا إيدا. لا تتخلي عني. لقد جئتُ إلى هنا قاطعًا مئات الأميال لأقول لك إني آسف وأنك حبيبتي للأبد. امنحيني فرصة أخرى. لأي إنسان الحق في فرصة ثانية، فرصة أخيرة، أليس كذلك يا إيدا؟"

رغم بُعد المسافات وقسوة الأيام، الأمل في اللقاء باقٍ في القلوب. المسافات لا تقرب أحدًا ولا تُبعده. القلوب هي التي تفعل ذلك.

(٥٨)

شعور جميل أن تستيقظ في الصباح قبل موعدك لتكتشف أن بإمكانك النوم بضع دقائق أخرى، لكن منصور هبَّ واقفا. ارتدى ملابس رياضية وحذاء خفيفًا وجهز الزاد والماء ثم استقل سيارة أجرة طلبها من الفندق وانطلق إلى جبل "إيدا".

كان السائق "ديميتريس" ذا ظِلٍّ خفيف. طلب الإذن في التدخين بعد أن فتح زجاج الأبواب. حين عرف أن "منصور" ينوي تسلُّق "إيدا" قال له بإنجليزية ركيكة:

- أحب المخاطرة والمغامرة، لكن احترس فهذا الجبل صعب المراس كالفرس الجامحة. لقد كدتُ يومًا أفْقِدُ حياتي فيه. كنتُ بصحبة زوجتي وتعثرت قدماي، لكن أمرًا غريبًا حدث في ثوانٍ معدودة.

- ما هو؟

- انشقت الأرض عن شخص سندني وأخذ بيدي وأقالَ عثرتي.

تعجَّب منصور من رواية السائق. مَن هذا الشخص الذي كتبَ عنه "السير إرنست شاكيلتون" خلال رحلته وأصاحبه إلى القارة القطبية الجنوبية عام ١٩١٤ وكيف أنقذ هذا الرجل حياته؟[١] اطلع الكاتب المشهور "ت. س. إليوت" على ما رواه "شاكيلتون" وتأثَّر كثيرًا بالفكرة لدرجة أنه خصَّص لها سبعة سطور من قصيدته الأشهر "الأرض اليباب".[٢] قال منصور مُوجِّهًا حديثه إلى "ديميتريس":

- لقد كتبَ عنه "إليوت".

- عذرًا يا سيدي، أنا رجل بسيط. لا أعرف "إليوت" هذا، لكني أحبُّ المغامرات والألغاز مثل ذلك القرص الذي صَحِبْتُكَ لتراه في المتحف أمس.

- أجل أيها الرجل الطيب. أنا أيضًا أحبُّ الألغاز.

الحياة لغز والموت لغز. الروح لغز والإنسان لغز والمرأة لغز. كم من الألغاز عَجَزَ العِلم عن الإجابة عنها! كم من الألغاز لم يفلح التاريخ في حلها! مثلث برمودة وزرقاء اليمامة وكفن تورين،[٣] الهرم الأكبر ومكان يأجوج ومأجوج، الأطباق الطائرة والرؤوس الحجرية

(1) Ernest Henry Shackleton, South: The Endurance Expedition, Penguin Classics, London, 1914, P. 204.

(2) T. S. Eliot's "The Waste Land".

(3) Shroud of Turin.

بجزيرة الفصح في شيلي، دوائر المحاصيل[1] وستونهنج[2] في بريطانيـا، قارة أطلانتيس وسر اندثار كوكب بلوتو، جيش قمبيز واختفاء الحـاكم بأمر الله... إلخ.

أيُّ لغزٍ أنت؟ وما اللغز الذي حيَّرك؟ ومـا الـسؤال الـذي أرَّقـكَ وقَضَّ مضجعك وطير النوم من عينيك؟ الشاهد أن كـلًّا منـا يحتـاج في فترة ما من حياتـه إلى لغـز يُغـيِّر الإيقـاع "الميكـانيكي" الرتيـب لحياتـه وينفض عنها تراب السنين. لغـزك يناديـك، فـانطلِقْ ولا تحـرم نفـسك مُتعةَ البحث والتنقيب ولذة المعرفة ودهشة الاكتشاف.

---

(1) Crop circles.

(2) Stonehenge.

(٥٩)

يرتفع جبل "إيدا" نحو ١٢٠٠ متر فوق سطح البحر، ويقال إن "زيوس" توارى به. الجبل شاهق، لكنه ليس صعب التسلُّق حيث تنتشر به الممرات والدروب وتكثر على سفحه الكروم والمروج.

صرف منصور السيارة. نظر إلى الجبل ورنَّت كلمات "إيليا" في أذنه: "أأنا السائر على الدرب أم الدرب يسير؟ أم كلانا واقف والدهر يجري؟"[١] لا يدري لماذا، لكن شعوره كان مضطربًا أمام هذا الجبل.

بعض الأماكن تخنقك. بعض الأماكن تلفظك. بعض الأماكن تكسرك. بعض الأماكن تُرهِبُك. بعض الأماكن تحميك. بعض الأماكن تحتويك. بعض الأماكن تسحرك. بعض الأماكن تأسرك.

---

(١) من قصيدة "الطلاسم" لإيليا أبي ماضي.

شعر منصور أنه يسير إلى قدره المحتوم تمامًا كـ "أوديب "حين قَدِمَ "طيبة". هل يطرح عليه "سفنكس" الأحجية نفسها؟ وإذا فعل هل يستطيع حلَّها رغم أنه يعرف الإجابة؟

بدأ التسلُّق. صحيح أنه أهمل الرياضة والتمرُّن منذ أمدٍ بسبب انكبابه على أبحاثه، إلا أن الحماسة كان وقوده. كان المنظر خلّابًا، بيد أنه لم يهتم إلا بالوصول إلى قمة الجبل.

فجأة وجد منصور نفسه معزولًا عن العالم الذي يعرفه. فجأة وجد نفسه في عالم آخر وكأن الزمن عاد به آلاف السنين للوراء. أحسَّ بالخوف بعد أن أدرك أنه حبيس عالَمٍ فسيحٍ مُتعدِّد الألوان.

مرت ساعتان وهو يتسلق الجبل. شرب بعض الماء وبدا عليه الإرهاق. حيَّاهُ بعض السائحين. واصل التسلُّق وهو يسأل نفسه: ما هذا الحمق "الدونكيشوتي" الذي أفعله؟ اقتربَ من القمة فشاهَدَ كنيسة صغيرة تلفُّها الأشجار.

دَقَّ قلبه بشدة واندفع "الأدرينالين" في دمِّه. لم يُخالِجْهُ شَكٌّ أنه سيجد "إيدا" في الكنيسة. شعر بالهيبة وهو يمشي الهُوينى نحو القمة. أحسَّ أنه يتقدم نحو عرش بلقيس أو أنه في حضرة الملكة نفرتاري. فردَ ذراعيه على اتساعهما في تمثيل للوحة "دافينشي" الشهيرة "الرجل الفيتروفي" ثم صرخ بأعلى صوته: "إيدا".

فجأة اختلَّ توازُنُه. وَقَعَ من أعلى الجبل مُرتطِمًا بصخرة احتجزته. فَقَدَ الوعي واستسلم لقدره. هَرولَ إليه الموجودون في الجوار واتصلوا بالحماية المدنية التي هُرعت للجبل ونقلته وأغراضه إلى أقرب مستشفى.

(٦٠)

"ماذا يبقى من الرواية، ومن الشجر ومن الشوارع ومن السهر ومن الليل ومن الحب والحكي والضحك والبكاء"[١].

مضى أسبوع ومنصور في مرحلة التهدئة وتسكين الألم.[٢] لم ينطق بأي كلمة سوى "إيدا".

"إيدا" هي تلك النبتة التي نمت في قلبه بين لحم ودم. هي تلك المعزوفة التي تأخذه للسحاب والجبال. هي تلك الحالة من الخدر الذي يدغدغ أعصابه ويُدلِّل إحساسه. هي التي من أجلها نحتوا كلمات العشق والغرام. هي التي من أجلها اشتقوا من الكلام نعوتًا وصفاتٍ.

---

(١) أغنية لفيروز؟

(2) Sedation.

لو أنه فنان تشكيلي لرسم لك يا "إيدا" "بورتريه" أجمل من لوحة "أديل بلوكباور".[1] لو أنه نحات لصنع لك تمثالًا أروع من تمثال "أفروديت". لو أنه شاعر لكتب لك قصائد أعذب من "سونتات شكسبير".

أنت الحركة يا "إيدا"؛ أنت الثبات؛ أنت الاكتشاف يا "إيدا"؛ أنت الدهشة. أنت اللهفة يا "إيدا"؛ أنت النجاة؛ أنت لغز الألغاز وسر الأسرار وعلم اللوغاريتمات؛ أنت المِحراب والهيكل وقُدس الأقداس.

أنت كل الأرقام يا إيدا. أنت حاصل الجمع وناتج الضرب. أنت القسمة وأنت النصيب. أنت الطرح وأنت الحصاد. أنت الجذر وأنت الأصل. أنت "الألفا" و"الأوميجا". أنت المعاني والأشكال والحروف. أنت "ألفية ابن مالك" و"بائية المتنبي" و"تائية ابن الفارض" و"نونية ابن زيدون" و"رائية عمر بن أبي ربيعة". أنت كل شيء.

البحث عن "إيدا" لم ولن يتوقف. كلنا يبحث عن "إيدا". إنها تعيش في أحلامنا وتَخيُّلاتنا. "إيدا" هي حواء التي نُحبُّها ونَحِنُّ إليها وننعم بصحبتها. "إيدا" هي العِشق والصِّدقُ والشوقُ. "إيدا" هي اللوحة والقصيدة وقطعة الموسيقى. "إيدا" هي كل هذا وأكثر.

---

(١) للفنان النمساوي "جوستاف كليميت"، ١٩٠٧.

(٦١)

بعد إفاقته جزئيًّا تبين أن منصور يعاني فقدان ذاكرة ما بعد الصدمة أو تجزُّؤ الذاكرة.

جالَ ببصره في غرفته بالمستشفى. كان أمامه لوحة لسفينة ضخمة تشقُّ الثلوج. ما أشبه كسارة الثلوج تلك بآلة القدر الضخمة التي تُحطِّم أحلامنا وتعصف بأيامنا وتُمزِّق أجسامنا وتفصلنا عن أحبائنا.

ما أشبه الإنسان بقطعة من الثلج في غور الجحيم، يسير على أوتار هشة هينة، حدثٌ بسيط قد يُغيِّر حياته، قلبه قد يتوقف في أي لحظة، رشفة ماء قد تقتله. لدغة بعوضة قد تودي بحياته، سلك كهرباء قد يصعقه.

قال الطبيب باليونانية وهو يناول الممرضة ملف الحالة إنه سيستعيد الذاكرة تدريجيًّا ثم انصرف. هزت الممرضة رأسها. تقدَّمت

إلى فراش منصور وهي تعلق صورة الجبل والـشمس التـي وُجـدت في ملابسه على الدولاب باستخدام مُثبتات مغناطيسية صغيرة.

علقت بجانبها ورقـة أخـرى كتـب عليهـا منـصور بخـطِّ يـده في الطائرة: "في البدء كانت الكلمة، كان اسمك، محفورًا في قلبي، محفوظًـا في رحم أمي، نحن لم نلتقِ البارحة، نحن عِشنا الدهر معًا، ولـمَّـا وجـدنا في أفواهنا ألسنة، رُحنا نبوح بالسر دون فهمٍ، بأنَّا عشنا الدهر معًـا دون عِلمٍ."

فَتَحَ منصور عينيه وراح ينقلهما بين الممرضـة والـورقتين. تقـدَّمت الممرضة نحوه ثم جلست بجـواره. مـدَّت يـدها إليـه بمفتـاح الحيـاة. أمسك بيدها مُتشبثًا كغريق.

التصقَ لسانه في فمه أو ربما ذاب واختفى. الرجل الذي فنَّـد آلاف الكلمات كان عاجزًا عن أن يخرج أبسطها من فمه. لأول مرة لا تـسعفه الكلمات، ولأول مرة يخذله بلعومه ولهاته وحنجرته وحباله الصوتية!

نظرت إليه مبتسمة وهي تقول: "كيف حالك؟" تقصد: "اشـتقتُ إليك."

السيرة الذاتية للمؤلف

د / محمد السيد علي عزب

- أستاذ الأدب الإنجليزي "المنتدب" بكلية التربية، جامعة الإسكندرية وجامعة فاروس.
- الأستاذ المساعد بجامعة الملك سعود وجامعة شقراء.

نشر له:

- الأساس في الترجمة، حورس، الإسكندرية، ٢٠٠٨.
- Brush upon your English، البراء، الإسكندرية، ٢٠٠٨.
- Enhance your English Vocabulary، البراء، الإسكندرية، ٢٠٠٨.
- تأثير المفاهيم الثقافية على دراسة اللغة الثانية مع التركيز على اللغة الإنجليزية في الولايات المتحدة الأمريكية، البراء، الإسكندرية، ٢٠٠٩.
- من مسرح الحرب: أمهات الرجال، رادا "ترجمة"، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، سلسلة المسرح العالمي، يناير ٢٠١٠.
- روايات محظورة، البيطاش للنشر والتوزيع، الإسكندرية، ٢٠١٠.

- اللغة الانجليزية كما يتكلمها أهلها، البيطاش للنشر والتوزيع، الإسكندرية، ٢٠١٠.
- قاموس المجاز المصور للغة الإنجليزية، البيطاش للنشر والتوزيع، الإسكندرية، ٢٠١٠.
- اضحك وتعلم الإنجليزية، دار الإبداع، الإسكندرية، ٢٠١٠.
- ست مسرحيات تبحث عن ناشر، دار الإبداع، الإسكندرية، ٢٠١٠.
- مختارات من الأدب الأنجلو-أمريكي، مكتبة بستان المعرفة، كفر الدوار، ٢٠١٠.
- اللغة العالمية الموحدة: مقومات النجاح وعوامل الفشل، مكتبة بستان المعرفة، كفر الدوار، ٢٠١٠.
- صدفة بتجمعنا (رواية)، دار العين للنشر، القاهرة، ٢٠١١.
- خيوط القدر (رواية)، دار العين للنشر، القاهرة، ٢٠١١.
- شعراء الجيش الثامن البريطاني، من العلمين إلى أورتونا، ١٩٤٢-١٩٤٥، آراؤهم وموقفهم من الحرب (رسالة دكتوراه باللغة الإنجليزية)، لامبرت للنشر الأكاديمي Lambert Academic Publishing، ألمانيا، ٢٠١١.
- الحب عبر أعمدة البرق (رواية للكاتبة الأمريكية إيلا شيفر ثاير)، ترجمة، دار طوي للنشر، بيروت، ٢٠١٢.
- قبر راحيل (رواية)، دار العين للنشر، القاهرة، ٢٠١٢.
- أرحام سماوية (رواية)، دار العين للنشر، القاهرة، ٢٠١٢.

- كيف تَزيد حصيلتك من مفردات اللغة الإنجليزية وتثريها (مع مي موافي)، دار الوفاء، الإسكندرية، ٢٠١٣.
- أمس انتهينا (رواية)، دار مير، الإسكندرية، ٢٠١٣.
- الحياة في البلاط الملكي المصري (للمؤرخ الإنجليزي: ألفريد جاشوا بتلر)، ترجمة (مع مي موافي)، دار ليليت، الإسكندرية، ٢٠١٣.
- بين الحب والحرب (رواية)، دار ليليت، الإسكندرية، ٢٠١٣.
- أقفال العشق (رواية)، دار ليليت، الإسكندرية، ٢٠١٤.
- رحلة حاج إلى مكة (للكاتب الإنجليزي: آرثر ويفل)، ترجمة (مع مي موافي)، دار ليليت، ٢٠١٥.
- عقدة سليمان (رواية)، دار إبداع للنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، ٢٠١٥.
- -الهوس والتوهم والرهاب والعقد النفسية والمتلازمات الثقافية في السرد الروائي العربي: دراسة تتبعية، دار غراب، القاهرة، ٢٠١٧.
- ذكريات أميرة مصرية (للكاتبة الإنجليزية: إلين شانيل)، ترجمة (مع مي موافي)، المركز القومي للترجمة، القاهرة (تحت الطبع).
- رحلة سناء حسن إلى إسرائيل، (مع إيمان سعيد)، دار ليليت، الإسكندرية (تحت الطبع).